الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليـــم العالـــي والبحـــث العلمـــي
جامعـــة 8 ماي 1945
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
قسم الفلسفة
تخصص: فلسفة تطبيقية

فلسفة الاخلاق في الفكر الغربي الحديث باروخ سبينوزا – أنموذجا–

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر

من إعداد الطلبة:
- فرحي سناء
- علال سمر

تحت إشراف الأستاذة:
- فرحات فريدة

الاستاذ	الرتبة	الصفة
بلواهم عبد الحليم	استاذ	رئيسا
فرحات فريدة	أستاذة	مشرفا
مراح فتيحة	استاذة	مناقشا

السنة الجامعية: 2019-2020

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شكر وتقدير

نتقدم بالشكر الجزيل الى الاستاذة فرحات

فريدة التي لم تبخل علينا بنصائحها

وتوجيهاتها المنيرة وصبرها الجميل علينا

كما نتقدم بشكر الى جميع اساتذة قسم

الفلسفة دون استثناء

اهداء

الى الوالدين الكريمين على دعا ونصائح والتوجيهات المنيرة والى زوجي العزيز الذي لم يبخل عليا بالنصائح والارشادات والتوجيه المنير والى اخوتي وزوجاتهم واختاي وأبناء وبنات أخوتي واصدقائي وخاصة منال والى كل من ساعدني ولو بكلمة طيبة او ابتسامة الى كل من دعا لي

وشكرا

فرحي سناء

إهداء

بداية نشكر الله تعالى على نعمة التوفيق وسداد الخطى في الطريق من خلال هذا الإنجاز المتواضع أهدي عملي هذا إلى من كان سندي في هذه الحياة، اللذين من طاعهم بعد طاعة الله فاز بجنانه من ارى نفسي في عينيه حامي أكتافي أبي الغالي حفظك الله، الى التي سهرت وتعبت الاخت والصديقة طريقي الى الجنة امي الغالية رعاك الله ،الى اللذي من بعد والدي لا يعلو مكانته أحد، سندي ومصدر قوتي، ومكسب حياتي زوجي الغالي حفظك الله لأراك أروع أب إنشاء الله، إلى عيناي الإثنتان أخوتي هيثم ويحيى حفظكم الله ، الى أم زوجي ووالده أطال الله عمرهما، إلى أخت زوجي وأخواته وزوجاتهم وأولادهم حفظكم الله جميعا. إلى جدي وجدتاي شفاكم الله وأطال أعماركم إلى أعمامي وزوجاتهم وأولادهم ، إلى عماتي الحبيبات وأزواجهم وأولادهم وبناتهم الأعزاء على قلبي حفظكم الله جميعا، إلى نبض قلبي صغيرتي جنى رعاك الله، إلى خالتي وبناتها وإلى من يسكنون قلوبنا قبل قبورهم أبي كمال أمي الكاملة رحمكم الله، إلى كل عائلتي من قريب وبعيد، إلى صديقاتي وجيراني إلى كل أساتذتي في مشواري الدراسي ، وختاما إلى فلتة كبدي الذي تفصلني عنه أيام قليلة وأراه في حضني جمعني الله بك بخير انشاء الله ،

سمر

مقدمة

مقدمة

يتناول موضوع المذكرة التي نحن بصدد معالجتها عنوانا موسوما بـ:" فلسفة الأخلاق في الفكر الغربي الحديث سبينوزا نموذجا" و الذي يمكن تصنيف مجاله إلى مجال فلسفي يتضمن فلسفة الأخلاق وهو مجال عام، أما المجال الخاص فيتعلق بالفكر الغربي الحديث و تناولنا كأنموذج باروخ سبينوزا كمثالا عن الطرح الفلسفي للأخلاق في الفكر الغربي الحديث.

فالأخلاق تشكل محور اهتمام الإنسان، و تشغل تفكيره ،فهو لا يستطيع أن يستغني عنها في أي لحظة من لحظات حياته، و هو بحاجة إلى معيار أخلاقي يمكن من خلاله الحكم على أفعاله وأفعال غيره بالخير أو الشر باعتبارهما مبدآ القيمة الأخلاقية، فلا يمكن أن يتصور المرء إنسانا يعيش بلا ضمير يحاسبه إذا أخطأ ، ولهذه الأهمية اتجه فلاسفة الأخلاق إلى تعريف الإنسان بهذه الماهية الإنسان كائن أخلاقي بمعنى أن هذه النظريات ماهت بين الأخلاق و الإنسان.

من هذا المنطلق المفهومي ترد أهمية موضوعنا في مختلف الدراسات الأخلاقية مند الفكر الفلسفي القديم فلاسفة الإغريق مع سقراط و أفلاطون... مرورا بالفكر الفلسفي للعصر الوسيط ، وصولا إلى العصر الحديث الذي عرف تميزا أكثر للدراسة الأخلاقية فقد حاولوا الارتقاء

بالأخلاق و ربطها بالجانب العملي للإنسان. فنجد اتجاهات فلسفية جديدة عنت بالفلسفة الأخلاقية، ومن أبرز أعلام هذه الإتجاهات الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا، فهذه الأهمية جعلتنا نختار هذا الموضوع.

ومن أسباب اختيارنا لهذا الموضوع يقع على أسباب ذاتية و اخرى موضوعية، فالأسباب الذاتية تتمثل في اهتمامنا بالفكر الفلسفي الغربي، وقلة الدراسات المتناولة لفكر سبينوزا الأخلاقي، أما الأسباب الموضوعية فهي القيمة الفلسفية لعلم الأخلاق إضافة إلى محاولة تحليل آراء سبينوزا من بعدها الأخلاقي لما لها من وزن في الفلسفة الغربية الحديثة وحتى المعاصرة، إضافة إلى قلة الدراسات و ندرتها لشخصية سبينوزا خاصة منها الأخلاقية و الفلسفية.

اما إشكالية بحثنا في إطارها العام تنطوي على فلسفة الأخلاق في الفكر الغربي الحديث و التي تنحل إلى مكونات أساسية بحيث أن الإشكالية تنحل إلى مشكلات متضمنة في فصول البحث و المشكلات تنحل إلى إشكالات متضمنة في مباحث كل فصل ومنه سياقة إشكالية موضوعنا في الطرح الفلسفي التساؤلي الذي يمكن صياغته على النحو التالي: ما مصدر و طبيعة القيمة الأخلاقية في الفكر الفلسفي السبينوزي؟ وكيف أسس سبينوزا للأخلاق العملية؟ وما أثرها على الفكر الغربي الحديث؟

وهذه الإشكالية تنحل إلى جملة من المشكلات المتضمنة فيها يمكن إثارتها في سيق تساؤلية مفادها: ماهي نظرة المذاهب الفلسفية لموضوع الأخلاق؟ وما أهم تياراتها عبر تاريخ الفكر الفلسفي؟ فماهو الأساس الذي إعمتده سبينوزا في نظريته الأخلاقية ؟ وكيف أسس لهندسة أخلاقية ؟ وما إنعكاس هذه النظرية السبينوزية على الفكر الغربي الحديث؟

هذه الإشكالية و المشكلات المنحدرة من صلبها إستوجبت منا لمعالجتها إستخدام المنهج التاريخي الذي وظفناه في الفصل الأول ونحن بصدد التنقيب عن السياق الفلسفي للفكر الأخلاقي، كما إستخدمنا المنهج التحليلي في ظبط المفاهيم لعلم الأخلاق و القيمة الأخلاقية، كما عالجنا الفصل الثاني من خلال محاولة تحليل اساس و مصدر النظرية الأخلاقية لسبينوزا و البناء الهندسي التي تقوم عليه النظرية الاخلاقية عند سبينوزا، أما المنهج النقدي فحاولنا إستخدامه في الفصل الثالث لإبراز الجوانب السلبية و الإيجابية في فلسفة الأخلاق عند سبينوزا.

أما من ناحية العوائق التي واجهتنا هي أن فلسفة سبينوزا فلسفة كلاسيكية بمفاهيم جديدة، وكذلك كون فلسفته فلسفة نسقية إذ لا يمكن الإعتماد على مصدر دون غيره من المصادر الأخرى، مما صعب علينا مهمة تقصي الحقيقة الأخلاقية عنده، إضافة إلى قلة الدراسات المتناولة للفكر الفلسفي الأخلاقي لدى سبينوزا.

ولمحاولة فهم و تحليل الأخلاق السبينوزية إستندنا إلى بعض المصادر منها: كتاب سبينوزا "الأخلاق" إضافة إلى مصدره الآخر "إصلاح الفهم البشري" و كذلك "رسالة في اللاهوت و السياسة"، كما إستندنا إلى بعض المراجع منها: كتاب فؤاد زكريا "اسبينوزا"، إضافة إلى جملة من المراجع و كذا المجلات التي سذكر في نهاية البحث.

ووفقا لطبيعة هذا الموضوع الذي نحن بصدد معالجته إستندنا إلى خطة منهجية تتضمن مقدمة و ثلاثة فصول و خاتمة.

تناولنا في المقدمة الإحاطة بالموضوع و بيان أهميته و ذكر الأسباب و الدوافع لدراسته ثم طرح الإشكالية المحورية للموضوع، و الصعوبات التي واجهتنا و نحن بصدد معالجته خاصة ما يتعلق منها بنقص المراجع التي تتناول فكر سبينوزا الأخلاقي، وبعد المقدمة تناولنا في الفصل الأول الموسوم بعلم الأخلاق و تطوره بين النظرية و التطبيق، الذي يندرج ضمنه مبحثين، المبحث الأول خصصناه للتطور الفلسفي لعلم الاخلاق، أما المبحث الثاني فخصصناه للأخلاق بين النظرية و التطبيق، ثم أردفناه بالفصل الثاني المعنون بالنظرية الأخلاقية و البناء الهندسي للأخلاق عند سبينوزا، و الذي يندرج ضمنه كذلك مبحثين، المبحث الأول يتناول طبيعة و أساس النظرية الأخلاقية عند سيبنوزا، أما المبحث الثاني فتناولنا فيه البناء الهندسي للأخلاق السبينوزية، أما الفصل الثالث فهو بمثابة نقد و تقييم

للفلسفة الأخلاقية السبينوزية، بحيث عرجنا إلى الجوانب السلبية و الإيجابية للرؤية الفلسفية للنظرية الاخلاقية لدى سبينوزا، و أنهينا الموضوع بخاتمة تناولنا فيها أهم النتائج المتوصل إليها كحوصلة لأهم النقاط من خلال معالجتنا لهذا الموضوع، و الله ولي التوفيق.

الفصل الاول

علم الأخلاق وتطوره بين النظري والتطبيقي

أولا تطور الفلسفي لعلم الاخلاق

1 السياق الفلسفي لعلم الأخلاق

2 تاريخ علم الأخلاق

ثانيا الأخلاق بين النظري والتطبيقي

1 الأخلاق النظرية

2 الأخلاق العملية

إن المشكلة الأخلاقية تعتبر من بين الموضوعات التي شغلت الفلاسفة والعلماء في العصر اليوناني القديم إلى يومنا هذا، ذلك لارتباطها بالإنسان حيث اهتم بها الفلاسفة واعتبروا أن الأخلاق وسيلة فعالة في تهذيب سلوك الإنسان، وأنتقل بها معظم الفلاسفة من حالة الطبيعة إلى الحياة المدنية، وبهذا المعنى تكون الأخلاق علما تكامليا يسعى لإيصال الإنسان إلى كمالاته، فقد اهتمت المدارس الفلسفية عبر العصور بدراسة الظاهرة الأخلاقية ووضع تعريف وتفسير لها، كما حاول الفلاسفة وضع ضوابط وأسس للقيم الأخلاقية عبر العصور، وتباينت الآراء في أصل هذه القيم الأخلاقية، كما عرفت الأخلاق تطورا بين ما هو نظري وما هو تطبيقي، فاهتمام الفلاسفة بعلم الأخلاق يجعلنا نتساءل عن تاريخها وسياقها الفلسفي، فماهي نضرت المذاهب الفلسفية لموضوع الأخلاق؟ وما أهم تياراتها عبر تاريخ الفلسفة كفكر؟.

وعند الحديث عن الأخلاق علينا أن نميز بين وجهين للأخلاق إحداهما نظري والآخر عملي، فما هي الأخلاق النظرية وماهي الخلاق العملية؟.

أولا: تطور الفلسفي لعلم الأخلاق

1: السياق الفلسفي لعلم الأخلاق"

إن علم الأخلاق هو العلم الذي ينظر في أصول وطبيعة المبادئ الأخلاقية وفي معايير الخير والشر"[1]، فقد عنت تقريبا كل المذاهب الفلسفية بموضوع الأخلاق منها: الأفلاطونية والمثالية .... وغيرها .

أ . **الأفلاطونية:** لأفلاطون دور كبير في إبطال الاتجاه السفسطائي الذي أقام الأخلاقية على الوجدان، إذ استهدف أفلاطون جعل القانون الأخلاقي عاما للناس في كل عصر" ولا يتيسر هذا إلا بإقامته على أسمى جانب مشترك في طبائع البشر ونعني به العقل"، فرأى أن الفعل الخلقي يتضمن جزاءه في باطنه، وأن الإنسان الفاضل يؤدي الفعل الخير لذاته باعتباره غاية في نفسه، وأبطل بذلك المذهب السفسطائي الذي وضع غاية الأخلاقية خارجها، ورهن الخيرية باللذة التي تنجم عنها[2]. فالأخلاق الأفلاطونية هي المثال الأول في الفكر الغربي للأخلاقيات المبنية على أساس العلوية، "فقد اقتبست هذه الأخلاق من الفيثاغوريين كما يبدو، وفكرة أن النظام الإلهي هو الذي يهيمن على الكون ذو طبيعة رياضية، وأن الروح حبيسة الجسد فلا يستطيع منه فكاكا[3].أي كل الفضائل يمكن تحديدها ضمن العلاقات، فالعدالة هي "المساواة"، والاعتدال هو "القياس".

وقد عرض أفلاطون لفكرة الخير الأسمى في محاورة "فيليب" ولم يتردد في القول كأستاذه: "إن الخير الأسمى للإنسان هو السعادة" وهذا الخير الأسمى يتحقق بالمزج بين المعرفة وبين الملذات المشروعة، فالملذات بدون علم، والعلم بدون ملذات كلاهما لا يحقق السعادة،

[1] اندريه لالاند: الموسوعة الفلسفية، منشورات عويدات، بيروت، باريس، المجلد 1، ط1، 1981، ص371.

[2] حسين حمزة شهيد: الأخلاق في فكر أفلاطون الفلسفي، جامعة الكوفة، كلية الآداب، قسم الفلسفة، العدد العاشر، 2008، ص262.

[3] غري غوان فرانسوا: المذاهب الأخلاقية الكبرى، ترجمة قوتيه ألمعروفي، منشورات عويدات، باريس، ط3، 1984، ص37.

والإنسان الذي يبغى تحقيق السعادة والوصول إلى الحكمة يجب أن يصغى إلى توجيه الحكماء الذين يعرفون هذه الآفاق المثالية[1]

ب . المثالية: ترى أن الأفكار والمقولات أو المثل موجودة وجودا وهو أسمى من الوجود المحسوس، والموضوعات ليس سوى انطباعات حسية أو أفكار باعتبارها تمثلات ذهنية والأشياء ليست موجودة بذاتها وجودا مستقلا عن القوة الناطقة، أي القوة المتعلقة التي تدركها، بل إن وجودها مستفاد من هذه القوة ذاتها[2].إن غاية القانون الأخلاقي في المثالية هو تحقيق الخير الأسمى في عالم لا يتجاوز الظواهر، يفرض أن يكون هناك إنسان يواصل تقدمه وكماله باستمرار، وهذا ما يسمى بخلود النفس، "ومصدر الأخلاق هو العقل ذاته والتجربة تقدم لنا مادة المعرفة الأولية، ولكننا نتجاوزها إلى البحث في صورتها العقلية القبلية"[3].

ج . العقلانية: العقل عندهم هو مقياس كل شيء، فهو قادر على تحرير الإنسان وجعله أكثر انسجاما مع الطبيعة، فقد حاول العقليون إقامة أخلاق بناءا على مبادئ يقينية ومطلقة، وهذه الأخيرة لا تكون إلا في المسلمات والبديهيات العقلية، "فينبغي على العقل أن يصنع ويبدع قانون ينظم رغبات الإنسان المتنافرة، فالعقل اتجاه حركة الذهن في منحنا البداهة الفكرة، فهو ضرورة حتمية وخاصيته تمكنه أن يكون مستقلا عن الإنسان المفكر من جهة، ومستقلا عن موضوع الحس من جهة أخرى، وأن الصلة بين المعرفة والعقل تمكنه من معرفة قوانين الكون وقواعد السلوك معا"[4].

[1] محمد بدوي: الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، جامعة الإسكندرية، 2000، ص ص50، 51.

[2] عثمان أمين: رواد المثالية في الفلسفة الغربية، دار المعارف، فرع الإسكندرية، القاهرة 1967، ص ص7، 8.

[3] إيمانويل كانط: مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة، تر: نازلي اسماعيل حسين ومحمد فتحي الشنيطي، موفم للنشر، 1991، ص37.

[4] جيني فان: روديس لويس: ديكارت والعقلانية، ترجمة عبده الحلو، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 1977، ص171.

وثقافة الاعتراف بالآخر: أي بالمبادئ الفطرية المشتركة بين جميع أجناس البشر "متمثلة بالاستعدادات والغرائز القابلة للتوجيه، بفعل العقل الذي يشكل مبعث القيم والمعايير المطلقة التي تتبني عليها فلسفة الأخلاق"[1].

د . الوجودية: لا يؤمن الوجوديون بوجود قيم ثابتة توجه سلوك الإنسان وتضبطه إنما كل إنسان يفعل ما يريد، وليس لأحد أن يفرض قيما أو أخلاقا معيارية معينة على الآخرين، من هنا تأتي الوجودية تمردا على الواقع التاريخي، وحربا على التراث الضخم الذي خلفته الإنسانية[2].الإنسان ليس كائن تام التكوين، بل انه كائن يتكون بفعل اختياره لنوع أخلاقه، وأن ضغط الظروف الاجتماعية المحيطة به قوي لدرجة أنه لا يستطيع معها إلا أن يختار، فكلما اختار ما يريد إلزامه وهو حر التصرف، صافي الفكر يحس أنه لم يكن باستطاعته اختيار شيء آخر.

"إن الإنسان ليس إنسانا إلا بحريته، فالحرية يصح اعتبارها تعرفا للإنسان وخلاصة ذلك أننا نستطيع أن نختار كل شيء وأي شيء على صعيد الانضواء"[3]. إن الأخلاق علم عملي يهدف إلى تحقيق غاية في حياتنا، ويرسم الطريق المؤدي إلى الخير الأسمى الذي يقصده الإنسان، والأخلاق دراسة حيث يقيم السلوك الإنساني على ضوء القواعد الأخلاقية التي تضع معايير للسلوك، وتكون الأخلاق طاقما من المعتقدات، أو المثاليات الموجهة، والتي تتخلل الفرد أو مجموعة من الناس في المجتمع.

[1] عطية :أحمد عبد الحليم: الأخلاق في الفكر الغربي المعاصر، دراسة تحليلية للاتجاهات الأخلاقية الحالية في الوطن العربي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ص 106.

[2] عدنان عويد: الفلسفة الوجودية، بوابة الهدف الاخبارية، 27أكتوبر2018.

[3] سارتر جون بول: الوجودية مذهب انساني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د س، ص79.

2: تاريخ علم الأخلاق

إن الأخلاق شغلت الإنسان منذ فجر التاريخ، كونها ترتبط به وتشغل مكانا كبيرا من اهتمامه، ومن أجل فهم هذه الأخيرة في مختلف الحضارات الإنسانية القديمة والحديثة والمعاصرة، علينا التوقف على أهم تياراتها عبر تاريخ الفلسفة كفكر.

أ . العصور القديمة:

- **عند المصريين:** إن أهم ميزة تميزت بها هذه الحقبة هو الاهتمام الذي أولاه المصريون القدامى لتطهير النفس البشرية، وإعدادها للانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، أي من الحياة الدنيوية إلى الحياة الأخروية . إما عن التفكير النظري والبحث العقلي المرتكز على أسس فلسفية مجردة، فتلك مسألة بعيدة عن اهتمامهم "لقد ظل المصريون يدينون بديانة عبادة الآلهة، وبهذا افتقرت تعاليمها إلى المعايير المنطقية التي يحكمها العقل، وبالتالي غلبة الطابع الخرافي الأسطوري"[1]، بالرغم من أن الحياة الدينية ارتكزت على فكرة قاعدية هي أن الرجل الفاضل أو الأصلح هو قانون الأخلاق، إضافة إلى ذلك فقد آمن الإنسان المصري القديم بالحياة الأخرى، وبمسألة الثواب والعقاب، ومن هذا كله فقد شغل أخلاق هذا الأخير، "ومثلت مذهبا سمي (أنيميا)*، فالأخلاق قد مثلت الجانب الأسطوري والخرافي"[2].

. عند الصينيون: تعتبر حضارة الصين إحدى حضارات الشرق الأقصى، وقد انبثقت عن الديانة القديمة التي تهتم بعبادة السماء التي ترتبط بعبادة الأرواح، ومن ابرز مذاهبها نجد "الكنفوشيوسية"**، وتعتبر المدرسة الأولى في ترتيب المدارس الفكرية الصينية القديمة، وقد كان لهذا المذهب تأثيرا بالغا على الحياة الأخلاقية للفرد وللمجتمع الصيني على حد سواء،

---

[1] مرحبا عبد الرحمان: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1993، ص 165.

* أنيميا: تعني الروح كمبدأ يقوم على أن كل كائن في الطبيعة يمتلك روحا يمكنه توجيهها عن طريق طقوس سحرية.

[2] فاخوري حنا: ولجر خليل: تاريخ الفلسفة العربية، دار الجيل، بيروت، ج1، ط2، 1981، ص85.

** الكنفوشيوسية: مجموعة من المعتقدات والمبادئ في الفلسفة الصينية طورت عن طريق تعاليم كونفشيوس تتمحور في مجملها حوا الأخلاق والآداب.

ويرتكز على توفر الحكمة في الإنسان. فالغاية التي نادت بها أخلاق كونفشيوس هي تحقيق الخير للدولة وذلك لا يكون إلا بإنقاذ الكرامة الإنسانية وجمع الناس وتوحيدهم، ومقاومة حياة البذخ والترف. "إن الأخلاق تتحقق في سلوك الناس بعضهم إزاء بعض، وهي تتجسد بصورة فردية في المثل الأعلى مثل (نبيل)، أو(لي: بمعنى قواعد السلوك)"[1]. فالشعب على حد تعبير"كونفشيوس" لا يقاد بالمعرفة بل بالأخلاق، والأخلاق التي تنفخ في الجملة روحا، وتنعشها بالحياة وبالفضائل الاجتماعية يصبح الفرد رجلا، إن (لي) تحقق تربية الجميع تربية دائمة، وهكذا فقد نشأت الأخلاق. إن المجتمع الصيني يقوم على مبادئ دينية في ضل فضائي كقيم أخلاقية ،حددت سلوكيات الأفراد من الحكام والرعية.

ـ عند الهنديين: أهم صفة اتصف بها التفكير الأخلاقي في الهند عن سابقيه هو ظهور فكرة التناسخ الآنيمية، والتي يمكن تلخيصها في ما يلي: انتقال الروح من جسد إلى أخر. وتميزت بتعدد واختلاف الآلهة، وبالأخص اله الأعلى(فراودا)، وهو إله العقل والأخلاق، إذ صب الإنسان الهندي القديم اهتمامه على مسألة الرفعة والرفع فوق الألم والجوع العطش والشيخوخة والموت، بوصفها سلبيات الحياة. بالإنسان لا يفنى بوفاته، بل تعود روحه إما إلى الحشرات إذا كان وضيعا، أو إلى طفل مولود أو إنسان آخر. وبقضاء الإنسان الهندي على الألم يكون قد بلغ درجة من الفناء التام، ومن هنا تكمن فكرة الاستنساخ، وهذا حتى تتخلص الأنفس البشرية من الرذائل، وتفوز بالنجاة متتبعة في ذلك طريق (بوذا).

. عند اليونانيين: إن ما يميز العصر اليوناني هو التنوع الفكر، فقد ارتفع فلاسفة اليونان" وباهوا الأمم والشعوب بسخاء عطائهم، وعظم ثرواتهم وسمو مشاعرهم فقد مروا على هذه الأرض مرور الغمام فوق أرض الفقر فكانوا كالأمل المشرق، ثم مضوا كالحلم تاركين ورائهم الخضرة والنضرة"[2]. ويرجع الفضل الأول في ما كونه العالم الغربي من فلسفة

[1] ياسبيرس كارل: فلاسفة إنسانيون، تر:عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط 3، 1988، ص 129.

[2] مرحبا عبد الرحمان: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، المرجع السابق، ص57.

أخلاقية إلى اليونانيين واللاتينيين، غير أن علمنا بكثير من هذه الفلسفة يكتنفه غموض ونقص بسبب ضياع كثير من المؤلفات.

ومن أبرز الفلاسفة اليونانيين نجد:

ـ سقراط (470 / 4000 ق م) يكاد يتفق جميع مؤرخي الفلسفة على أن سقراط مؤسس الفلسفة الأخلاقية في العالم الغربي لكن لم تخرج تعاليمه عن أن تكون محادثات وتأثيرات شخصية، وقد غمرته الأساطير.

ـ أفلاطون (329 /247 ق م): تحتل المشكلة الأخلاقية حيزا رئيسيا في فلسفته حتى أنها تداخلت وجملة أبحاثه، فالفضيلة عنده هي العمل الحق، وهي صادرة عن معرفة صحيحة، والعمل دون فهم أو إدراك لامعنى له، بل دافعه التقليد وبحكم العرف وبذلك، يقسم أفلاطون الفضائي بحسب أنواع النفس إلى ثلاث:

. النفس الناطقة: فضيلتها الحكمة

. النفس الغضبية: فضيلتها الشجاعة

. النفس الشهوانية: فضيلتها العفة[1]

ـ أرسطو (384 / 322 ق م) يعتبر أرسطو أول من ذهب في العصور القديمة مذهب الأخلاق حقيقة من خلال كتابه (الأخلاق إلى نيقو ماخوص) ولم يختلف كثيرا عن "سقراط " " أفلاطون" في اتخاذ العقل الأساسي الأول لبلوغ السعادة في أقصى درجاتها و، "ولقد حاول هؤلاء الفلاسفة الثلاث مجتمعين إعطاء الاهتمام الأكبر للمشكلة الأخلاقية، نظرا للوضع الاجتماعي الفاسد في عصرهم، وحاولوا تغيير هذا الفساد المملوء بالصراعات، وذلك بنشر تعاليم الفكر الأخلاقي، والسعي وراء تحقيق المدينة الفاضلة والعدالة التي تجد العقل والحكمة"[2].

[1] أندريه كاريسون: المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، تر: عبد الحميد محمود، تع: أبو بكر ذكرى، مهرجان القراءة للجميع، ص85.

[2] يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، ط1، د س، ص 81.

ب . العصور الوسطى:

. اليهودية:

يعتبر كتاب العهد القديم، وهو مجموعة أصفار لم يذكر منها القرآن سوى " توراة موسى عليه السلام "، و" زابور داوود عليه السلام"، كتب العهد القديم بالعبرية وبعضه بالآرمية حوالي (150ق م) وضعت له ترجمة باليونانية أما التلمود شرح للتورات، وهناك تلمودين: تلمود اورشليم، وتلمود بابل وهذه إشارة دون توغل في عرض علم العهد القديم فقط ما أشار إليه القرآن، أو ما كان يعرفه على الأرجح عامة يهود الجزيرة العربية . ويلخص فيما يلي: ـ التوحيد: " يهوه" وحده إله وكل ما كانت تعبده الشعوب الأخرى وفن أو شيطان، وهو إله خالق، وهو إله عالم حي قدير يأبى الإسرائيليون التفوه باسمه خشية وإجلالا

. الوعي: يهوه رعي شعبه، هداه بواسطة قادته وأنبيائه، خاطب مباشرة وعلى لسان الأنبياء

. "الوصايا العشر: هي الوصايا التي أعطاها يهود لموسى في جبل طور سيناء، وهي:

*أنا يهوه إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من دار العبودية ولاتستجد لإله غيري.

*لا تحلف باسم يهوه إله باطل.

*أذكر يوم السبت لتقدسه.

*أكرم أباك وأمك فيطول عمرك.

*لا تقتل، لا تزني، لا تسرق، لا تشهد زورا على قريبك، لا تشتهي امرأته أو أمته، أو ثروته، أو شيئا مما يملك"[1]

. المسيحية: إن الصفة الأساسية في أخلاق الفكر المسيحي هي ميزة الحرية التي تتناقض والعمل الصالح، بل إن المسيح عليه السلام كان يبشر بها من يهتدي للعقيدة المسيحية[2].

[1] قامير يوحنا: أصول الفلسفة العربية، منشورا المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط2، 1967، ص ص17، 18.

[2] هاملتون حبيب: علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات، باريس، 1977، ص7.

و ترى في أن العهد القديم، والعهد الجديد مبادئه الأخلاقية راقية ،ذلك أن الأخلاق صادرة عن الإله متشابهة في كل مكان، فهي تعاليم سامية منزهة بعيدة عن الرذيلة غير معرضة للفساد، في حين أن اللاهوت صادر عن البشرية، فالواجب أن تقدر الأخلاق الواردة الكتب المقدسة حق قدرها فهي الأخلاق الخالدة[1]. ولعل القديسين "أوغسطين" و" توما الإكويني"، أكبر نموذجين لتبيان الفكر الأخلاقي المسيحي. لقديس أوغسطين (354 / 430 م ق): يقول: "إن الإنسان الحكيم هو ذلك الإنسان الذي يعيش ويعرف فن العيش في معرفة إبقاء التوازن التام بين رغباتنا وأوضاعنا، ومن يفعل ذلك يحصل على السعادة الدائمة، وهذه الأخيرة تمثل الإله باعتباره الدائم في الوجود"[2].

ـ الإسلام: يرتبط مفهوم الأخلاق في الإسلام بمعطيات ت الأديان السماوية السابقة له، متصلا بها على النحو الذي عبر عنه الرسول ﷺ حين قال: " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " . فالأخلاق في مفهوم الدين الحق المنزل من عند الله ضوابط وكوابح لتزكية النفس، وترويض غرائزها، وتصعيدها والسمو بها، والإسلام لا يقتل الغرائز، بل ينظمها ويضعها في نظام الاعتدال"[3]. ومن أهم فلاسفة الإسلام الذي تطرق لموضوع الأخلاق نجد:

ـ أبي ناصر الفارابي: يلقب بـ "المعلم الأول"، كثير التأليف في علم الأخلاق وهكذا فقد تناول طائفة من الأمثلة كالشجاعة والسخاء والعفة، فالشجاعة كما يقول: "خلق جميل والتحدث في الوسط في الإقدام على الأشياء المفزعة والإحجام عنها، والزيادة في الإقدام تكب التهور والنقصان، يؤدي إلى الجبن أو كلآهما خلق قبيح، فالفضيلة أتت وسط بين رذيلتين إحداهما إفراط والأخر تفريط فالسعادة غاية كل ما عداها وسيلة"[4].

[1] كاريسون اندريه: تيارات الفكر الفلسفي في العصور الوسطى، منشورات عويدات، بيروت، 1962، ص14.

[2] زيغود علي: أوغستينوس، دار أقرا، ط1، د س، ص 219.

[3] الجندي أنور: مفاهيم العلوم الإجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام، دار الكتب، الجزائر، د س، ص 71.

[4] مرحبا عبد الرحمان: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، المرجع السابق، ص 454.

ج . العصر الحديث: لما نال الفلاسفة من سأم في مذاهب العصور الوسطى رأى الكثيرون منهم أن يرجعوا إلى وجهة المذاهب القديمة، لذا بدأوا يفكرون في (الخير الأعظم)، ويحاولون تجديد فكرته بتحليل الآمال الإنسانية وأن يستخلصوا من ذلك نتائج منطقية لما يجب أن تكون عليه الحكمة والفضيلة . وقد بدأت فعلا هذه الحركة ترتسم في الأفق منذ القرن (17 م) عند بعض أولئك الفلاسفة الذين وإن لم يكونوا قد زهدوا في الميتافيزيقيا، فإنهم شيدوا أعظم المذاهب.

ـ المذهب العقلي: إن العقل في هذا المذهب هو المحدد الوحيد لقواعد السلوك البشري، إن يحرر الإنسان من قيوده ويجعله أكثر انسجاما مع الطبيعة، بل يذهب إلى أبعد من ذلك، إنه يحاول السيطرة عليها ويجعلها خاضعة له . ومن بينهم " ديكارت"، "اسبينوزا "، "لايبتنز". وخير مثال لهذا يتجلى في صنيع "ديكارت"، حيث اعتبر الأخلاق أطيب ثمرة لدوحة الفلسفة التي تكون الميتافيزيقيا جذورها، والفيزيقا جذعها، لا كن لا يمكن نيل جناها إلا أخيرا والأخلاق عنده تتلخص في تدبير وهداية أفعالنا حتى نستطيع الحصول على السعادة التي ننالها في العمل وفقا للعقل، وأول ما نتعلمه في هذه الأخلاق هو السير في حياتنا على وجه ملائم في هذا العالم الذي خلقه الله تعالى لنا في كمال ونظام مطلق . والخير عند "ديكارت" يعني تصميم الإنسان على فعل الخير برضا من نفسه، وهو لا يميز الخير الأسمى ومعرفة الحق، فالرذيلة عنده تعني الشر أما الخير فمبعثه النفس، تتوجه له الإرادة إذا ما تحلت بالأفكار الواضحة. وهذا يربط بين العلم والفضيلة ويعتبرهما شيئا واحدا، كما يكون الخطأ والرذيلة شيئا واحدا، ونحن نريد الخير مدفوعين بإرادتنا، "وليس من أمر في مقدورنا إلا خطرا ت نفوسنا التي تستطيع التحكم فيها بصورة أكيدة، وبهذا فإنه يربط بين الأخلاق في السعي إلى الخير الأسمى، ومعرفة الإله والإتحاد به"[1]. وبهذا فإن الأخلاق عند

[1] عباس عبد المنعم: ديكارت والفلسفة العقلية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د س، ص 403.

ديكارت تعلي من شأن العقل، وترجع إلى أحكامه الواضحة المتميزة، فالفلاسفة العقليون قد حاولوا إقامة أخلاق بناءا على مبادئ يقينية ومطلقة.

. الأخلاق المثالية (الكانطية): إذا كان العقليون يردون السلوك إلى تقدير عقلي، فإن "كانط" لا يختلف عنهم ما دام مقياس الأخلاق إلى طبيعة العقل، والقيم الأخلاقية في نظره مرهونة بالإرادة الخيرة التي تعمل بدافع الواجب لذاته، أي أن الإنسان يعمل الخير حبا له في انتظار مكافئة على فعله . وبهذا فإن الواجب بالنسبة إلى كانط هو العمل بمقتضى قانون عام لا يحده زمان ولا مكان، وهذا القانون لا يصدر عن عاطفة بل عن العقل العملي وحده، والباعث على عمل الخير هو تقدير عقلي لمبدأ الواجب دون ضرب أي حساب لنتائج الفعل، أو رجاء منفعة، أو ثواب أو خشية عقاب . ولهذا تكون للشخص قدرة عقلية على إدراك الواجب شبيهة بما تسميه الإلهام، وله إرادة خيرة بطبيعتها[1].

. المذهب النفعي: الحديث عن اللذة لم يكن وليد العصر الحديث، فقد كان للأقدمين السبق في ذلك، أي أن كل فعل يعود على الفرد باللذة فهو خير، وكل ما عاد عليه بالألم فهو شر. فمهمة الفلسفة كما يرى زعيم هذا المذهب "أبيقور" أن تزود صاحبها بالهدوء والطمأنينة، والمنفعة هي مقياس الفعل الخلقي لدى المدرسة البراغماتية، فهو لا يطلب شيئا أخر غير اللذة، وبالخصوص اللذة الحسية التي تعتبر أقوى اللذات جميعا، وهي التي تستحق الطلب والتحصيل على حد تعبير "أبيقور": "إن جميع الحيوانات تطلب اللذة وتنفر من الألم، وأن أصل كل خير هو لذة البطن، وينبغي على الإنسان أن يعمل من أجل الحصول على أكبر لذة ممكنة".

والكثير من النفعيين على رأسهم "بنتام" لا يرون في تفضيل اللذات عن بعضها البعض إلا من خلال الكم، أي ينظرون إلى أي اللذتين أكبر، وقد وضع "بنتام" معيار للمفاضلة عن طريق معرفة شدة اللذة، ومدتها وشمولها لأكبر عدد من الناس.

[1] إيمانوال كانط: مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة، المرجع السابق، ص68.

الأفعال الصالحة عند النفعيين هي التي توصل إلى السعادة، والأفعال السيئة هي التي توصل إلى الشقاء والألم[1].

د . الحقبة المعاصرة:

إن العصر المعاصر يعتبر آخر مرحلة من مراحل التفكير البشري ودراسة الأخلاق، ولعل الوجودية هي آخر أشكال الفلسفة الإنسانية. لذلك لا بد من التركيز على أهم جوانب تناولها للأخلاق، إذ يصنف التاريخ الوجودية الحديثة على أنها صرخة الإنسان من أعماق أعماقه في وجه القدر، إنها صورة عن مأساته في هذا الوجود العابث، وأهم ميزة للأخلاق العصر الحديث أن هناك عاملي الخلق والابتكار، فنحن لا نستطيع أن نقرر بصورة إيجابية ما علينا أن نفعله، وباعتبار الإنسان ليس بكائن كامل التكوين، بل يتكون عبر الزمن باختياره لنوع الأخلاق لمواجهة ظرفية الظروف المحيطة به، إذ تنطلق الوجودية من الذات (الإنسان) التي هي مركز المبادرة ومقر الوجدان والشعور، وأن الإنسان كائن متكامل بعقله ومشاعره وجسده وروحه، أما عن معارفه وخبراته فهي نسبية دوما ولا توجد حدود حاسمة نهائية، بل تبقى فيها ثغرات وليس هناك حقيقة مطلقة.

أما الحرية لدى الوجوديون هي الوجود الإنساني، ولا إنسانية من دونها، والحرية تعمل ضمن المعايير الفردية لا ضمن المعايير الأخلاقية والسياسية والدينية السائدة، " أما المسؤولية من وجهة نضر الوجودية هي الجانب المظلم للحرية، فعندما يدرك الأفراد أنهم مسؤولون كلية عن قراراتهم وأعمالهم ومعتقداتهم، يتملكهم القلق فيحاولون الهرب بتجاهل وإنكار حريتهم ومسؤوليتهم"[2]. أي إنكار موقفهم الحقيقي، وبهذا ينجحون فقط في خداع أنفسهم وينتقد بعضهم هذا الخداع الذاتي، ويصرون على قبول المسؤولية كاملة من أجل سلوكهم مهما كانت هذه المسؤولية صعبة.

[1] أحمد أمين: الأخلاق، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1965، ص59.

[2] حلمي مصطفى: الأخلاق بين الفلسفة وعلماء الدين، دار الكتب العالمية، ط 1، 2004، ص8.

ثانيا: الاخلاق بين النظري والتطبيق

عند الحديث عن الاخلاق علينا ان نميز بين وجهين للأخلاق احدهما نظري والاخر عملي، فالأول يضع الاسس والمبادئ والنظريات التي تسند اليها السلوك الانساني، والثاني عملي يبحث في التطبيقات العملية لهذا السلوك، داخل كيان محدد.

1-الاخلاق النظري:

عند الحديث عن مفهوم الاخلاق النظرية لابد لنا ان نقف قليلا عند عملاقين اثنين من عملاقة الفلسفة النظرية المثالية للأخلاق الا وهما:

إيمانويل كانط الذي ينفي عن الاخلاق خضوعها للتجربة، على اعتبار ان الجانب الذي يتعلق بالتجربة لا يندرج تحت مفهوم الاخلاق، وانما يندرج تحت نطاق الأنثروبولوجيا العملية والتي تعني عند كانط اساسا علم الطبيعة الانسان كما تقدمها لنا التجربة، والتي تبحث في الملكات الانسانية من حيث قدرتها على تحقيق سعادة الانسان، وتنمية مهاراته العملية عن طريق التربية والتهذيب وهي بوجه عام تتعلق بموضوعات افعال الانسان. الاتجاه الاخر المناقض تماما لكانط الا وهو "ليفي بريل" الذي هاجر الاخلاق النظرية بشدة قائلا "ان الاخلاق النظرية تعتبر نفسها نظرية وعملية في نفس الوقت، وهذا فاسد منطقيا حسب راي "ليفي بريل" لان الاخلاق النظرية دائما معيارية، ولهذا فهي لا تكون نظرية بالمعنى الصحيح، وذلك لأي نظري يصف ويصدر احكاما واقعية، بينما المعياري يصدر احكاما تقويمية تامر بكذا وكذا، ولا يمكن الجمع بين النظري والتقويمي، وبين الواجب والتقرير للواجب، ومن المستحيل وضع نظرية لما يجب ان يكون وانما توضح النظريات لتفسير ما هو كائن[1].

[1] عبد الرحمن بدوي: الاخلاق النظرية، وكالة المطبوعات، الكويت، 1975، ص ص25،26.

2-الاخلاق العملية:

نتطرق في هذا الاتجاه الى رائدين اثنين من رواد الاخلاق العملية الا وهما:

***الجاحظ:** يميل الجاحظ الى اعتبار الاخلاق الاجتماعية او الاخلاق العملية المقارنة للسلوك الاجتماعي اليومي المرتبطة بالحياة الضرورية انما هي خبرة تراكمية تنتقل من حين الى اخر عبر وسائط مختلفة، ويضرب مثالا على ذلك حاجة الناس الى اخبار من سبقهم حاجة ضرورية فهي صفة لازمة في طبائعهم، وخلقة قائمة في جواهرهم وثابتة لا تزايلهم، ومحيطة بجماعتهم ومشتملة على ادناهم واقصاهم.

فالأخلاق الاجتماعية او العملية من وجهة نظر "الجاحظ" تمثل ضربا من العلاقات التعاونية القائمة بين الناس والتي بموجبها لا يستطيع لاحد الاستغناء عن الاخر، فهي تمثل حالة من عرى الوثاق والتآزر والتفاهم والتعاون البناء الذي يقضي الى قيام مجتمع متعاضد، لا يقوى احد على الانفراد به او الانقضاض عليه بينما نرى الاتجاه الاخر الاقرب لشخصية "الجاحظ" الا وهو "جورج جورفيتش" عندما دعا الى اقامة تطابق بين الاخلاق النظرية والعملية، وهو في الوقت نفسه يناقض صراحة وعلانية افكار "ليفي بريل" في نفي الاخلاق النظرية وهذا ماجدا "بجورج فيتش" الى بناء علم الاجتماع الاخلاقي، والذي يعنى بدراسة انواع السلوك الارادي والتي يمكن ان تشاهد جميع تحولاتها الخاصة مشاهدة خارجية بصورة جمعية، خلافا "لليفي بريل" الذي اعتبر الاخلاق النظرية اخلاقا مشخصة حركية، وثيقة الاتصال بالحياة والعمل، بمعنى الدقيق، وتجريبية بالمعنى الصحيح[1].

_لا يمكن الحديث من الناحية النظرية عن مفهوم الاخلاق العملية فكلاهما مكملان لبعضهما.

البعض، والشواهد على كثير ولعلى اضرب مثالا واقعيا من البيئة المعيشة، الا وهي قيم الصدق والوفاء والاخلاص، وغيرها من القيم التي اكتسبتها وعشناها منذ امد بعيد.

[1] عبد العزيز احمد: مباحث في النظريات الاخلاقية، دار الفكر العربي عابدين، 1965، ص ص63،64.

فقيم الصدق والوفاء والاخلاص هي قيم نظرية ارادية تنبع من داخل اي انسان يعيش داخل اي مجتمع من المجتمعات، لكن ترجمتها الى الناحية التطبيقية او العملية هو الاهم، وهذا لا يدفعنا الى نفيها مطلقا عن الواقع او البيئة التي نعيش بداخلها، وحتى نستطيع ممارستها لابد من صفة الالتزام والاقناع بها، والا ستصبح مجرد قيم هامشية.

فحتى نستطيع ان نكسب اخلاقا نظرية اكثر حيوية والتزاما فعالا، لابد من الايمان بها وممارستها ميدانيا على ارض الواقع، والا فما فائدة الصدق اذا لم يمارس ويؤت ثماره بين بني البشر، وينجم عنه المحبة والوفاء ان تزداد العلاقات بين الناس وثوقا والتزاما[1].

[1] زكي مبارك: الاخلاق عند الغزالي مطبعة الرحمانية، القاهرة، 1977، ص160.

ان الاخلاق النظرية والعملية عبارة عن خطيين مستقيمين لا يمكن لاحدهما الانحراف او الميل الى الجهة الأخرى وهذا من شانه ان يؤثر على السلوك ودرات الفعل لدى البشر، فكيف لنا ان نؤمن بالصدق مجرد اقوال دون افعال تطبيقية نستطيع ترجمتها ميدانيا على ارض الواقع، بدون الايمان بها، والاقتناع بممارستها حتى تكون نموذجا وقدوة حسنة لمجتمع ينشد ابناؤه ومردوه الالتزام الفعلي بالأخلاق قولا وفعلا.

مهما تبدلت الاحوال وتغيرت السنون، فان القيم الاخلاقية تبقي ثابتة، ولا يمكن ان تتغير .

اما السلوك الانساني والافعال الناتجة عنه هي من تستطيع ان تحافظ على تلك القيم وتعطيها مزيدا من البقاء والديمومة حتى لا تكون عرضة للانفصال والاندثار عن الحياة العامة للبشر[1].

[1] المرجع السابق، ص161.

الفصل الثاني

النظرية الأخلاقية والبناء الهندسي للأخلاق عند سبينوزا

أولا الأساسي للنظرية الأخلاقية عند سبينوزا

1 الطبيعة والقيم الأخلاقية

2 نقد فكرة حرية الإرادة

3 الانفعالات ووسيلة التغلب عليها

ثانيا البناء الهندسي للأخلاق السبينوزية

1 في المفهوم

2 في البديهيات

3 في البرهان

لقد احدث سبينوزا أساسا في النظرة الفلسفية لمجال الأخلاق، فهو يرفض تماما تفرقة الفلاسفة التقليديين بين مجال المعرفة النظرية الخالصة، وهي (الميتافيزيقيا) ومجال المعرفة العلمية وهي (الأخلاق).

فأخلاق سبينوزا ليست عنصرا أو جزءا من فلسفته، بل فلسفته كلها أخلاقية في مبادئها وأسسها وفي أبعادها ومساعيها، فأبحاثه الأولى لعلم الأخلاق تعرض المبادئ الميتافيزيقية التي تقوم عليها المبادئ الأخلاقية، فضلا عن كون المطلوب من هذه الأبحاث هو بيان ما ينبغي معرفته لكي يصبح المشروع الأخلاقي ممكنا، أي أن تكون نظرتنا إلى الطبيعة في مجموعها نظرة علمية لا تمتزج بها خرافات، أو ترتكز على كيانات أسطورية، فما هو الأساس الذي أعتمده سبينوزا في نظريته الأخلاقية؟ وبما أن العلم والمعرفة يفحان لنا أبواب الأخلاق، مثلما تمهد الأخلاق الطريق للمعرفة، فكيف مهد سبينوزا لهندسة الأخلاق؟.

أولا: الأساسي للنظرية الأخلاقية عند سبينوزا

أهم طابع يمثل النظرية الأخلاقية عند سبينوزا هو القول إن الإنسان لا يقف بمعزل عن الطبيعة وقوانينها، فاسبينوزا قد انقد بشدة أولائك اللذين تصوروا الإنسان على انه "يقف من الطبيعة كأنه دولة داخل الدولة ويظنون...أن له سلطانا مطلقا على أفعاله وان شيئا لا يتحكم فيه سول ذاته " **فنقطة البداية الأساسية في هذه النظرية الأخلاقية هي الإدراك العلمي للارتباط بين الإنسان وبين الطبيعة بوجه عام، ومن ثم تأكيد سيادة فكرة الضرورة في مجال الإنسان بدوره، " فمن المحال إلا يكون الإنسان جزءا من الطبيعة بوصفها العلة الكافية لها** " وهكذا أكد أن الهدف من علم الأخلاق ليس الوعظ والإرشاد وإنما هو الدراسة والبحث والفهم فننقل بذلك الأخلاق من مجال "ما ينبغي أن يكون" إلى مجال "ما هو كائن" وأكد أن مهمته في وصفه باحثا أخلاقيا ليست أن يحتقر أو ينتقد وإنما أن يفهم الطبيعة البشرية على ما هي عليه[1] أي أن تكون نظرتنا إلى الطبيعة في مجموعها نظرة علمية لا تمتزج بها خرافات، أو ترتكز على كيانات أسطورية. وان كان ثمة معنى للخلود، فالخلود بالنسبة لسبينوزا يكون في أن الإنسان ما هو إلا امتداد للجوهر الأزلي الخالد، ولما كان الإله بحسب توصيف سبينوزا " **يتصف بقوانين طبيعته وحدها** "، فانه لا مجال للخوارق أو لتعطيل قوانين الطبيعة الناظمة[2]، وان الجهل بالعلل والأسباب وقوانين الطبيعة هو الذي يحمل البشر على تصديق أن قوانين الطبيعة تعطلت استجابة لصلاة أو دعاء، ذلك أن الناس "**يحكمون على الأشياء وفق استعدادهم العقلي، وإنهم يتخيلونها أكثر مما يعرفونها**"[3]، وهذا الأمر ينطبق كذلك على رؤية البشر للخير والشر وللقبيح والحسن، فهم إنما ينظرون إلى هذه الموضوعات كما تبدو لهم هم لا بما هي عليه، فهذه الأشياء "**لا يكون**

[1] فؤاد زكريا: "اسبينوزا"، مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، 2017، ص 304.

[2] باروخ سبينوزا: "علم الأخلاق"، تر: جلال الدين سعيد، مراجعة د.جورج كتورا، المنظمة العربية للترجمة بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم،بناية بيت النهضة، شارع البصرة لبنان، الطبعة الأولى،2009، ص41.

[3] المصدر نفسه: ص 79.

تقديـر ما لها من كمال إلا بالنظر إلى طبيعتها وقدرتها بمعنى إن هذه الأشياء لا تكون أكثر أو اقل كمالا لكونها تروق للحواس أو تنفرها أو لكونها تلائم الطبيعـة البشرية أو تقززها"[1].

وهكذا تجاوز سبينوزا الحواجز بين الواقع والمثل العلى، وبين ما هو فعلي وما هو معيار مثالي وانكر الخير المطلق، وبالتالي عالم الغايات الذي تركزت فيه الأخلاق المثالية بأسرها.

وهذه الصفة الأساسية تفسر الطابع الفريد الذي تتميز به الأخلاق عند سبينوزا، فالأخلاق من وجهة نظر معينة مستحيلة في مذهبه، وهي من وجهة نظر أخرى أساس ذلك المذهب والعنصر الجوهري فيه، ومن المستحيل تفسير هذا الازدواج الغريب إلا من خلال الارتباط الوثيق بين موضوع الأخلاق، وهو الإنسان، وبين ضرورة الطبيعة في مجموعها[2].

وهو يؤكد أننا كلما تعمقنا في فهم قوانين الطبيعة الشاملة كنا أقدر على فهم سلوك الإنسان، أي إن مجال الأخلاق ليس إلا مركزا تتلاقى فيه إشعاعات المعرفة البشرية في سائر فروعها، ويطبق فيه العلم الإنساني بكل ما حققه من نتائج وكل ما عليك، لكي تكون قد تعمقت في فهم السلوك البشري والعلاقات المتبادلة بين الناس، أن تكون نظرتك إلى الطبيعة في مجموعها نظرة علمية سليمة لا تمتزج بها خرافات أو ترتكز على كيانات أسطورية، وكما ينبغي أن يقال، من وجهة النظر هذه، إن الأخلاق معرفة نظرية شأنها شأن العلم العقلي بوجه عام، فمن الممكن أيضا أن يقال: إن العلم ذاته له طابع عملي أخلاقي، أي إن العلم والمعرفة يفتحان لنا أبواب الأخلاق، مثلما تمهد الأخلاق الطريق للمعرفة. والمهم في الأمر أنه لا وجود "لأخلاق مجردة" منفصلة عن المجرى العام لعلم البشر، وبذلك يتجاوز

[1] باروخ اسبينوزا: المصدر السابق، ص 80.

[2] فؤاد زكريا: اسبينوزا، المرجع السابق، ص204.

سبينوزا، بهذا المعنى أيضا، التفرقة بين الواقع والواجب، وبين العلم النظري والبصيرة العملية، وبين الأخلاق والعلم[1].

1 . الطبيعة والقيم الأخلاقية:

عندما يقول سبينوزا أن قوانين الطبيعة وأوامر الله الخالدة شيء واحد فهو يعني أن الله في انتهائه من وضع قوانين الطبيعة الثابتة بحكمته، إنما وضعها بأوامر خالدة منه لا يمكن للإنسان أو غيره دحضها، وأصبحت تلك الأوامر جزءا لا ينفصل من نظام الطبيعة الثابت العام ودلالة على ماهوية الخالق المعجزة.

هذا الثبات هو سر احتفاظ الطبيعة بثبات قوانينها العامة وعصمتها من الانتهاك... ولا مجال في تصحيح مسارات خاطئة طارئة في الطبيعة هي أساسا ثابتة وغير منتهكة وتعتبر جزءا من معجزات الخالق في صنعها[2].

ووفقا لسبينوزا، الله هو الطبيعة والطبيعة هي الله هذا شكل مذهبه " الو احدي" أو"ألحلولي" في كتابه " رسالة في اللاهوت والسياسة "، شرح سبينوزا معارضته لنتيجة امتلاك الله خواص بشرية. في الفصل الثالث من الكتاب صرح أن كلمة" الله" تعني نفس كلمة "الطبيعة".

كتب: "سواء قلنا..أن كل الأشياء تحصل نتيجة لقوانين الطبيعة، أو تحصل بقرار وتوجيه من الله، إننا نتحدث عن الشئ نفسه . في كتابه "علم الأخلاق" عادل بين الله والطبيعة فكتب الله أو الطبيعة أربع مرات. بالنسبة لسبينوزا، الله أو الطبيعة كائن واحد وشئ واحد إنه نظام نشط، ضروري الوجود، أبدي، لا نهائي ومعمم للكون الذي هو موجود بالمطلق في كل شئ. هذا هو المبدأ الرئيسي في علم الأخلاق.

نستطيع أن نقول إن المظهر الرئيسي للاختلاف بين وجهة نظر سبينوزا ووجهة النظر التقليدية إلى الأخلاق هو أن القيم الأخلاقية عنده ليس لها مكان في المجرى الفعلي

[1] المرجع السابق: ص205.

[2] علي محمد يوسف: سبينوزا.. الله والطبيعة والإنسان، صحيفة المثقف، أقلام فكرية، العدد 5109، 01 . 09 . 2020.

للطبيعة، بينما كانت القيم الأخلاقية في نظر الفلاسفة التقليدين هي الغاية النهائية لسلوك الطبيعة بأسرها. وهذا الفارق الرئيسي هو الذي يحدد الاختلاف بين وجهة النظر العلمية الصارمة عند سبينوزا وبين وجهة النظر الغائية السائدة من قبله. فالطبيعة عند سبينوزا خالية تماما من القيم البشرية: " إنني لا أعزو إلى الطبيعة جمالا ولا نظاما ولا اضطرابا، فليس في وسع المرء أن يقول عن الأشياء إنها جميلة أو قبيحة، منظمة أو مضطربة، إلا من وجهة نظر الخيال "والخير والشر لا وجود لهما إلا في ذهننا، لا في الطبيعة، وليس لهما أية دلال'ميتافيزيقية، وإنما هما يتعلقان بوجهة نظر البشر فحسب.

وبعبارة أخرى: فالخير والشر لا يدلان على صفة إيجابية في الأشياء منظورا إليها في ذاتها، إنما هما أحوال للفكر أو موضوعات فكرية نكونها من مقارنة الأشياء بعضها ببعض[1].

إن سبينوزا لا يتفق مع تعاليم الدين اليهودي أو أي ديانة أخرى في تفسير مفهوم الخير والشر، ويرى أن ما تظنه شرا لنفسك قد يكون خيرا لشخص أو مجموعة أشخاص أخرى، فإذن الخير والشر هي قيم نسبية أعطاها الإنسان للمواضيع العامة حسب فائدته أو مضرته منها[2].

ونجد سبينوزا يقرر أن الخير والشر ليس له أي قيمة ذاتية بل قيمته تتبع من الإنسان نفسه، فكل فعل أخلاقي تتحدد قيمته بما يحققه للإنسان من منفعة، فما كان في صالحه وسعادته سماه خيرا، وما كان ضارا ولا يحقق له المنفعة سبب له الحزن، سماه شرا وفي هذا يقول "نسمي شرا ما يكون سببا في الحزن، ما يضعف أو يعوق قدرتنا على الفعل"[3].

[1] فؤاد زكريا: "اسبينوزا "، مؤسسة الهنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، 2017، ص205.

[2] يوحنة بيداويد: الله في فكر الفيلسوف الهولندي باروك سبينوزا، الحوار المتمدن، 20 . 09 . 2010.

[3] سبينوزا: علم الأخلاق، المصدر السابق، ص 288.

فمن حيث ظاهر اللغة المستخدمة، يوجد تشابه واضح بين سبينوزا وبين الفلاسفة المدرسيين، إذ أنه بدوره يرمي إلى تقديم تفسير لظاهرة الشر في عالم تسيطر عليه ألوهية، ولكن هذا التشابه سطحي وخداع، والنتيجة الحقيقية للتفكير مختلفة في كل حالة عنها في الأخرى كل الإختلاف، ذلك لأن المدرسيين واللآهوتيين كانوا يحاولون إستبعاد فكرة الشر عن الفاعلية الإلهية لكي يستبقوا لهذه الفاعلية طابعها الخير، أي أنه إذا كان الشر في نظرهم وهما غير حقيقي، فإن الخير حقيقة لا شك فيها، وله دلالة ميتافيزيقية أو أنتولوجية أساسية، وهو الغاية القصوى التي يستهدفها كل فعل إلهي. أما سبينوزا فعن طريقته الخاصة في استبعاد فكرة الشر عن الفاعلية الإلهية، أي من المجرى الضروري للأشياء، تتضمن في الوقت ذاته استبعادا للخير ومعه كل القيم المماثلة، من هذا المجال نفسه، فهو يختلف عن المدرسيين اختلافا أساسيا في أنه لا ينفي الشر لكي يترك الخير وحيدا في الميدان، بل يخلي الميدان من جميع القيم الملائمة وغير الملائمة في آن واحد. وهذا بطبيعة الحال هدف مختلف تماما عما كان يرمي إليه المدرسيون، بل إنه في واقع الأمر يهدم كل أسس التفكير المدرسي، من حيث إنه يستبعد الخير بوصفه غاية لمسار الحوادث في الكون، وهكذا يتضح مدى الاختلاف الضخم بين نتائج سبينوزا ونتائج المدرسيين رغم أنه توصل إلى نتائجه عن طريق مقدمات تبدوا من حيث لغتها، قريبة الشبه من لغتهم إلى حد بعيد.

2 . نقد فكرة حرية الإرادة:

يظهر اتساق الإتجاه الحتمي في نظرية سبينوزا الأخلاقية بوضوح في نقده لفكرة حرية الإرادة فعلى خلاف معظم المذاهب الفلسفية التي لم تتصور إمكان قيام الأخلاق دون إرادة حرة، يؤكد سبينوزا أن الاعتقاد بحرية الإرادة وهم باطل، وأثر من آثار الجهل بالأسباب الحقيقية، وأننا لن نستطيع فهم الإنسان على حقيقته، وبالتالي فهم طبيعة سلوكه، طالما أننا نفترض مقدما مثل هذه الفكرة الباطلة[1]. وهذا المعنى صاغه سبينوزا بلغة لاهوتية والقائلة:

[1] فؤاد زكريا: المرجع السابق، ص 208.

"إن الـه وحـده هـو الحـر"، فالنـاس يخطئـون حـين يظنـون أنفسـهم أحـرارا، ومـا رد هـذا إلـى شعورهم بأفعالهم الخاصة وجهلهم بالأسباب المتحكمة فيها.

إذن، فمن المحال أن يكون الإنسان حرا بمعنى أنه له مشيئة أو إرادة تسلك من تلقاء ذاتها، دون أن يـتحكم فـي سـلوكها سـبب خـارجي، إذ أن الإنسـان علـى صـلة مسـتمرة بعوامـل لا متناهية في العالم المحيط به، ومن المحال أن يسلك على أي نحو دون يأخذ هذه العوامل بعين الاعتبار. وهذا إعلان عن نسبية الحرية الإنسانية، وهي نابعة من رغبة الإنسان في الحكم على الأشياء كما لو كان المرء هو الآمر الناهي في مجاله الخاص. وذلك حين يفرق بين القوانين الطبيعية، والقوانين التي يسنها الإنسان[1].

وبناء على ذلك، فالحرية، لدى سبينوزا ليست سوى الاستجابة الطبيعية لقانون الضرورة، الذي لا يرى في تسييره للإنسان نوعا من الإرغام أو التحكم، وذلك لأن الإنسان يسلك وفقا لطبيعته، المتمثلة في العقل المنظم والمبرمج وفقا لذلك القانون، والإرادة لديه .كما تبين سابقا. ليست إلا ميل العقل إلى قبول ما يروقه من المعاني، وإستبعاد ما لا يروقه، وهذا ما يجعل الفرد عندما يسير وفقا لما يقضي به العقل، لا يشعر بأنه مسير، لأن القوة التي تدفعه للفعل تكمن بداخله فقط. وهذا يعني أن الله أو الطبيعة بمعناها الكلي الشامل، هي التي تملك الحرية لأنها لا تواجه ضغطا أو إرغاما خارجيا. أما الإنسان فهو في أفعاله محكوما بالعديد من العوامل الخارجية، ولا يمكن أن يسلك على أي نحو دون أن يحسب حسابها وتأتي في مقدمة ذلك العوامل ثقافة المجتمع، التي تفرض على الفرد العديد من المبادئ والقواعد أو المعايير، التي يجب عليه الالتزام بها في سلوكه وتفاعله مع الآخرين. وإذا ما حاول تجاهلها، أو تصرف دون أخذها بالاعتبار، فإنه يقع فريسة للعقاب الاجتماعي. وسبينوزا ذاته، وفي موضع آخر من فلسفته الأخلاقية يشير إلى محركات خارجية أيضا وراء سلوك الفرد وأفعاله، ويتحدد وفقا لها جوهره، وتتمثل هذه المحركات في البيئة والمجتمع، فـ"...لكي

[1] المرجع نفسه، ص 203.

تكون إنسانا كاملا، لا ينبغي أن تتحرر من قيود المجتمع ونظامه ". فالإنسان، كغيره من الكائنات في هذا الكون الفسيح، "...محكومة بنظام الضرورة الحتمية، لم يكن في الطبيعة ممكنات، ولم يكن في النفس إرادة حرة، أي أن الإنسان ليس مملكة في مملكة، فالشعور الحرية خطأ ناشئ مما في غير المطابقة من نقص وغموض، وإنما يعتقد الناس أنهم أحرار، لأنهم يجهلون العلل التي تدفعهم إلى أفعالهم[1].

3 . **الانفعالات ووسيلة التغلب عليها:** يرى سبينوزا إن قدر الإنسان هو أن لا يهزم الانفعالات، لأنه باختصار، محاط بوابل من القوى العارمة التي تصدم بقوته في كل حين، وقد يكون الاصطدام محطما. لكن وعلى الرغم من ذلك، بإمكان الإنسان أن يحسن توجيه تلك القوى عن طريق العقل. فالعقل كقوة طبيعية أيضا موكول له مهمة استيعاب آليات اشتغال الطبيعة وقوانينها وأسبابها. وهو ما يسمح بتقليل الانفعال السلبي وأخذه نحو الإيجاب بكلمة أكثر تبسيطا، يمكن إزالة الانفعال السلبي إذا استطعنا تكوين فكرة واضحة ومتميزة عن الأسباب المحركة للانفعال. آنذاك نحصل على الهدوء، ونكتشف أن الأمر طبيعي. فلما القلق إذن؟ إن الناس تحترق بالسلب نظرا لجهلها الأسباب. ولا خروج من عبودية الانفعالات، ولا تحقيق للغبطة إلا بالمعرفة. وهنا يعلن سبينوزا تفوق الحكيم على الجاهل[2]. ولقد أتى سبينوزا في الباب الرابع من "الأخلاق" بقائمة طويلة للانفعالات البشرية، معرفة كلها من خلال هذا المبدأ الأساسي: مبدأ زيادة قدرة الإنسان على حفظ ذاته والاستمرار في وجوده أو الإقلال من هذه القدرة. ولهذه القائمة طرافة كبيرة ووهي بلا شك تؤلف جانبا هاما لنظرية سبينوزا الأخلاقية، وتدل بكل وضوح على أصالة هذه النظرية، إذ لأن تعريفاتها العلمية الصارمة للانفعالات تختلف تماما عن تعريفات الفلاسفة الأخلاقيين التقليديين بكل ما تضمنته من معاني تقويمية وتمييزات كيفية بين الانفعالات: فقائمة الانفعالات عند

[1] أمة السلام محمد علي جحاف: باروخ سبينوزا "فلسفة وتربية"، مراجعة: محمد الكمالي ومحمد الخياط، جامعة الملكة أروى، الجمهورية اليمنية، 2008، ص ص106 107.

[2] محسن المحمدي: سبينوزا ومواجهة الانفعال السلبي، جريدة العرب الدولية، الشرق الأوسط، اغسطس 2016.

سبينوزا تمثل المحاولة الوحيدة، في المذاهب الأخلاقية التقليدية لرد جميع انفعالات الإنسان إلى أصل واحد ترتبط فيه طبيعة الإنسان بطبيعة كل كائن حي آخر، ولا ينظر إليها على أنها تحتل في الكون مركز" دولة داخل الدولة"ومع ذلك، فرغم ما لهذه القائمة من أهمية في هذا الصدد، فلن نتحدث عن محتوياتها بالتفصيل، إذ أن هذه المحتويات يمكن أن تقرأ مباشرة دون عناء كبير، في كتابات سبينوزا ذاته وهي على أية حال لا تترك مجالا كبيرا للشارح، إذ إنها واضحة . نسبيا. بالقياس إلى كثير من الأجزاء الأخرى لفلسفته[1].

ولأن سبينوزا يعتبر الإنسان جزءا من الطبيعة، تحكمه قوانينها الصارمة، فقد رد جميع انفعالاته إلى أصل واحد ترتبط فيه طبيعة الإنسان بطبيعة كل كائن حي آخر وذلك لكي يثبت أنه لا يتميز عن مكونات الطبيعة الأخرى، وهذه الانفعالات الأصيلة التي يشترك فيها مع غيره من الكائنات، هي اللذة، والألم، والرغبة. وقد عرف سبينوزا انفعالي اللذة والألم بقوله: اللذة هي انتقال الإنسان من كمال أقل إلى كمال أعظم، والألم هو انتقال الإنسان من كمال أعظم إلى كمال أقل وكون اللذة والألم تعبير عن حالة انتقالية يمر بها الإنسان، فهذا الدليل على أنهما انفعالان مرتبطان بافتقاره إلى الكمال، فمن عادة الإنسان أن يمر بأحوال مختلفة في درجة كمالها، وفي عملية الانتقال ذاتها تكون اللذة أو يكون الألم. أما الرغبة فهي التعبير المباشر عن ميل الإنسان إلى حفظ وجوده، وعن كونه واعيا بهذا الميل، وهو يعرفها بأنها "...ماهية الإنسان ذاته، بقدر ما تتصور على أنها مسيرة، عن طريق تأثر أو تعديل لها، إلى فعل شيء ما"، وهي تشمل كل مساعي الإنسان واندفاعاته وشهواته ومطالبه التي يسعى بها إلى تحقيق شيء ما، ومن هنا كان ارتباطها الوثيق بالماهية الأساسية للإنسان[2].

[1] فؤاد زكريا: اسبينوزا، مؤسسة هنداوي سي آي سيوالمملكة المتحدة، 2017، ص214.

[2] أمة السلام محمد علي جحاف: المرجع السابق، ص112.

ثانيا: البناء الهندسي للأخلاق السبينوزية:

لقد انجز سبينوزا اساسا في الاخلاق الفلسفية في مجال الاخلاق، فهو يرفض قطعا تفرقة الفلاسفة القدماء بين مجال المعرفة النظرية الخالصة، وهي الميتافيزيقا ومجال المعرفة العلمية وهي الاخلاق اي تكون نظرتنا الى الطبيعة في مجموعها نظرة علمية اي ابتعاد عن المزج بين خرفات، او تركيز على كيانات الاساطير.

مما يعنى ان العلم والمعرفة يفتحان لنا ابواب الاخلاق مثلما تمهد الاخلاق الطريق للمعرفة فماهي المناهج التي استخدمها سبينوزا في مجال الاخلاق؟.

1. في المفهوم:

ظهرت فلسفة سبينوزا في تلك الفترة التي احتضنت المراحل الاولى للعلم الحديث، وهي تحديدا تلك الفترة التي واكبت ولادة مفهوم الحتمية بوصفه نموذجا فرض نفسه على كل معرفة علمية، غير ان القول بالحتمية لا يعني ان هناك قوة تزعم الظواهر.

على اليسر في نسق معين، ولما كان القول بالحتمية يعد من اهم الصفات التي تميز التفكير العلمي، فإننا يمكن ان نصف فلسفة سبينوزا بالعلمية، وذلك من خلال قراءة كتابه (الاخلاق) والذي يلخص كل مؤلفاته ويكملها "فان اهتمامه بالأخلاق كان من خلال اهتمامه الرئيسي بغرض تفسير فيزيائي شامل للكون والانسان، مما يؤكد تشبع سبينوزا بالروح العملية في نظرته الفلسفية[1] لكن "سبينوزا" قام بنقد الغائية انطلاقا من هذه النقطة تحديدا، حيث يرى ان اخطاء الناس وتحيزاتهم ترتدكلها الى خطا اساسي واحد هو " تلك الآراء تنطلق من فكرة تشير عموما الى ان كل الاشياء في الطبيعة تسلك كما يسلك البشر، اعني نحو غاية"[2].

لذا فهو يعمد هنا الى تبرير ميل الانسان لتبني هذا الراي الذي يراه خاطئا، وكيف انه يسهم في بروز اراء خاطئة حول الخير والشر والخطأ والصواب، والنظام والفوضى.

[1] فان جال: طريق لفيلسوف، تر: أحمد حمدي محمود القاهرة، 1967، ص208.

[2] Spinoza، ethics، ethics, an introduction, New york, cambridge, uni pressm 2006, p75.

فيرى ان "كل الناس يولدون وهم جاهلون لعلل الأشياء هم جميعا يمتلكون الرغبة للبحث في ما هو مفيد لهم، ويتبع ذلك اولا ان الناس يتصرفون من اجل الشيء الذي يبحثون عنه، لذلك يحدث ان نظرة واحدة فقط لمعرفة العلل النهائية للأحداث عندما تكون معلومة، فانهم يعتقدون انه لا مبرر لمزيد من الشك، فاذا لم يستطيعوا ان يعرفوا هذه العلل من مصادر خارجية فانهم مجبرون على التأمل في انفسهم، والتفكير في الغرض الذي يستميلهم شخصيا التعليل الحدث لهذا فهو يفسر الملكات والظواهر بوصفها وسائل تتيح للناس القول بوجود حاكم للكون، وتجبرهم على الايمان بذلك[1].

ويقرر في مقدمة المقال الرابع من مؤلفه (الاخلاق) "ان الطبيعة لا تعمل مستهدفة غاية ما، لان الكائن الازلي اللامتناهي الذي ندعوه الاله يعمل بالضرورة نفسها التي وجد بواسطتها اي ان سبب او علة وجود الاله وسبب فعله هما شيء. لذلك فان العلة التي تسمى نهائية هي ليست سوى رغبة انسانية الى الحد الذي نعتبرها فيه اصلا وعلة لأي شيء"[2].

ومن هذا نقده للغائية والتي يوجهها نحو تصور القيم الاخلاقية والجمالية، وعلى هذا فان "سبينوزا " يرجع التجاء الناس الى التفسير الغائي الى الجهل بالأسباب وما اوردناه اعلاه هو بعض من حججه في تفنيد الغائية والتي حفل بها الفصل الاول من (الاخلاق).

وقد انصب نقده للغائية خاصة على المستويين: النفسي والتاريخي "وان تفنيدها على المستويين النفسي والتاريخي يعد مساهمة اعظم في دعم الروح العلمية، وتأكيد واضحا وصارخا على تشرب سبينوزا بتلك الروح العلمية[3].

اما على الصعيدين النظري والإيديولوجي، فانه تعامل مع المفهوم الغائي موجها اهتمامه نحو العقائد الشائعة بكل ما يتبعها من تفسير وتنظير تصدر به رجال اللاهوت في عصره.

---

[1] Spinoza, ibid, p 75.

[2] Ibid, p77.

[3] سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، تر: حسن حنفي، مكتبة أنجلومصرية القاهرة، دط، 1981، ص101.

يرى هدف الدين الحقيقي هو تحرير الناس والجدير بالذكر هنا ان سبينوزا.

لا يتوجه بنقده نحو الدين بوصفه منزلا او علاقته بمصدره، وانما نحو بعض الممارسات التي تدعي انها دينية، وهي في حقيقتها لا تمت باي تدعي انها صلة الدين، ولا تخضع لأي تفسير عقلي او عملي اذ يقول "لقد دهشت مرارا من رؤية اناس يفتخرون بإيمانهم بالدين المسيحي، اي يؤمنون با لا يتوجه بنقده نحو الدين بوصفه منزلا او علاقته بمصدره، وانما نحو بعض الممارسات التي تدعي انها دينية، وهي في حقيقتها لا تمت باي تدعي انها صلة الدين، ولا تخضع لأي تفسير عقلي او عملي اذ يقول "لقد دهشت مرارا من رؤية اناس يفتخرون بإيمانهم بالدين المسيحي، اي يؤمنون بالحب والسعادة والسلام والعفة والاخلاص لجميع الناس، وينازعون مع ذلك بخبث شديد، ويظهرون اشد انواع الحقد بحيث يظهر ايمانهم في عدائهم لا في ممارستهم للفضيلة[1].

وهكذا، فان حملته تأتي بالدرجة الاولى على رجال اللاهوت، الذين يستغلون طابع القداسة للكتب المنزلية متخذين منها نقطة بداية للدراسة والتفسير، حيث يرى ان الضرر الذي يترتب على نظرة رجال اللاهوت هذه، هو انهم يستغلون طابع القداسة في عنق حرية الفكر وكتم اصوات خصومهم، به السيطرة السياسية ايضا: "و على هذا النحو كان لبحثه اللاهوتي السياسي هدفان: "الاول اثبات ان حرية الفكر لا تمثل خطرا على سلامة الدولة"[2].

يبدو مما تقدم ان (الحتمية)جاءت ببساطة نتيجة اضفاء الحلة الرياضية الهندسية على الفكر "وما الشعور بالحتمي الا الشعور بالنظام الساسي، الشعور بقرار الفكر وسكونه الناجم عن التناظر، الشعور بطمأنينة الروابط الرياضية".[3]

[1] سبينوزا: رسالة في اللاهوت و السيلسة، المصدر سابق، ص202

[2] المصدر نفسه، ص13

[3] رايشنباخ هانز: نشأة الفلسفة العلمية، تر: فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للطباعة و النشر، بيروت، ط2 ، 1979،،ص54

اذ يشير "سبينوزا " من خلال الصفحات الاولى من كتابه (الاصلاح الفهم الانساني) الى هدفه وغايته الاخلاقية التي يوجه نحوها كل نتاجه الفلسفي، وهي الوصول بالإنسان الى الكمال، يقول: "لا شيء نأخذه بطبيعته يمكن ان يسمى كاملا perfect او غير كامل لاسيما عندما ندرك ان كل شيء يحدث، فانه يحدث على وفق النظام الأزلي والقوانين الازلية"[1].

ولا يمكن ذلك الا بتحديد الهدف، ونقطة البداية اساسيات المنهجية مع التقليل من اهمية الادراك الحسي، لان هذا الادراك يختلف باختلاف العوامل المحيطة به.

وبالتالي هي ادراكات متغيرة وذاتية، اذن، لابد من التركيز على الادراك العقلي في تكوين المعرفة العملية، دون ان تعفل ما كان للمنهج الديكارتي من دون الذي تناوله بالتأمل.

الا ان المشكلة "سبينوزا" الرئيسية كانت في ايجاد الوسائل الملائمة للوصول الى التأكيد التام، اذ يرى ان العقل ينمو عندما يصل الى ادراك عدد اكبر من المواضيع، ويصبح مكتكلا عندما يحصل على معرفة الاله او الموجود المطلق.

والطريق لإدراك الحقيقة الفعلية تكون من خلال (الفكرة الصحيحة)"فحسب المرء يعلم ما الفكرة الوهمية حتى يتحاش الخلط بينهما وبين الفكرة الصحيحة[2].

وحقيقة الافكار الصحيحة بالنسبة ل"سبينوزا " يجب ان توجد قوة وطبيعة الادراك، وقبل ذلك لابد من ابتكار وسائل لتحسين الادراك وتقنيته، وانماط الادراك عنده اربعة:

أ- ادراك يظهر من خبر نسمعه، فبالسمع اعرف اقربائي، ومواضع اخرى.

ب- الادراك يظهر من التجربة المحملة، من تجربة غير مصنفة من العقل وتدعى كذلك فقط، لان الحدث المعنى وقع ليحدث.

ج- ادراك يظهر عندما نستدل على ماهية شيء ما من خلال شيء.

---

[1] سبينوزا: اصلاح الفهم الانساني، ج2 من كتاب الأخلاق، تر: جلال الدين سعيد، ص6.

[2] ايميل بريهية: تاريخ الفلسفة، تر: جورج طرابيشي، دار الطباعة، بيروت، ط2 ،1972، ص128.

د- ادراك يظهر عندما ندرك شيئا من خلال ماهية فقط[1].

وبهذا يمكن حصر التحليل في فلسفة "سبينوزا" في تحليله لقوة الادراك بوصفه الاداة التي بواسطتها يتمكن من تحديد نقطة البداية في فلسفته، وهي (الفكرة الصحيحة)، والتي منها نستنبط كل الافكار الاخرى في مقابل قوة التفكير المتمثلة لقوة المنطق التي موضوع المنهج الرياضي الهندسي.

ومن خصائص جعل الادراك واضحا: انه يتضمن تأكيد، انه يدرك الاشياء تحت ظرف الزمن المحدد لا تحت شكل معين من الازلية.

ومن هنا، يبدو الهدف الحقيقي للمنهج العلمي في فلسفة سبينوزا هو ان يجد الحقيقة في القوانين الطبيعية غير المتغيرة في العالم سوى تعتبر عنها، ولا تكون مضمونة الا من خلالها لذا، تفرض علينا المسالة الأبستمولوجيا التي نعرض من خلالها استعمال "سبينوزا " للمنهج الهندسي، لابد من فحص الاتساق التجريبي للمنهج من ناحية، واتساق النظري للفكر الهندسي عنده من ناحية اخرى.

اما بالنسبة للاتساق التجريبي للمنهج، فقد تنبه سبينوزا الى ذلك الفارق النوعي بين ما هو رياضي هندسي وما هو منطقي، بين حدسي وبين ما هو صوري".[2]

الا ان سبينوزا يرفض مبدا الهوية بوصفه اساس للإدراك، فمنهجه الهندسي يستحضر بادئ ذي بدء مفاهيمه الحدسية القبلية ليكون نوعا من الاحكام هو ما يمكن ان تطلق عليه احكام تركيبة قبلية.

وبهذا فان المنهج الهندسي في فلسفة "سبينوزا " يكشف عن اتساق كتلة العلاقات الكلفة بربط الاشياء، حيث يقول: "ان النظام وترابط الافكار مشابه لنظام وترابط الاشياء[3] ."

---

[1] سبينوزا: اصلاح الفهم الانساني المصدر نفسه، ص7 .

[2] كريم زيد عباس: اسبينوزا، فلسفة الاخلاقية، المكتبة الفلسفية، ط1،2008،ص108

[3] spinoza ibid, p86 .

وبالنسبة للاتساق النظري للمنهج، فانه بات معلوما لدينا ان "سبينوزا " اتخذ من هندسة اقليدس المثال الذي يتحدى به من خلال كتابه الاصول(the élément)

وتبعا، لذلك فان العناصر التي تشكل المنهج الهندسي هي: التعريفات والبديهيات والبراهين.

- وتبعا لذلك ف "سبينوزا " قواعد يجب مراعاتها يمكن ان نجملها على النحو التالي:
- اذا كان الشيء مخلوقا، فان تعريفه يجب ان يدرك علته القريبة.
- ان مفهوم او تعريف الشيء يجب ان يجمع كل خصائصه.
- اذا كان التعريف لشيء غير مخلوق فيجب استبعاد فكرة اي علة.
- عند اعطاء تعريف للشيء، يجب ان لا يترك مجال للشك حول وجوده.

انه يجب الا يحتوى اسماء يمكن ان توضع بصورة وصفية.

ومن هنا لابد التمييز بين نوعين من التعريف: التعريف الصوري(formal définition) والتعريف السيمانطيفي، الذي يمثل قاعدة تسمح لنا بتحسين معنى الرمز الذي نريد تعريفه او توضيح معناه.

2. في البديهيات: وترجع اهمية النظام البديهي عند "سبينوزا" الى الامكانية التي يقدمها هذا النظام في تنظيم الادراكات، والاسلوب الذي تنظم وتتوحد به، لذلك نرى انه يؤكد قبل كل شيء على وجوب الاستدلال، لأن البديهيات امتداد غير متناه، ولا توجه العقل للتأمل بشيء خاص معين اكثر من غيره[1].

فالنظام البديهي يتألف من منظومة قضايا ترتبط فيها الحدود الأولية بالعلاقات المنطقية، مثل "واو العطف، وكلمة أو، ولام التعريف وكلمة كل، وكلمة بعض".

اما عن النظام البديهي الذي يوظفه "سبينوزا" في كتابه (الأخلاق) تتشكل بديهياته في

[1] سبينوزا: اصلاح الفهم البشري مصدر نفسه، ص37.

أنساق يشير كل منها الى موضوع ذلك القسم من الكتاب الأقسام الخمسة، وعلى سبيل المثال كان موضوع، والأمر كذلك بالنسبة الى باقي اقسام الكتاب.

و بذلك نستطيع القول " بديهيات سبينوزا انتظمت بطريقة أكسوماتيك متعلق بأخذ حدود لاهي منطقية، ولا رياضية، على غرار الحدود المستخدمة في الأخلاق، بل هي اسمية (nominal) [1].

3. في البرهان: وقد اتخذ البناء البرهاني عند "سبينوزا" أسلوبا يتلخص بتعيين اللامعرفات اولا: تم تعريف الافكار التي تأتي بعدها، ثم الانتقال بعدها الى تعريف الافكار الاخرى بالأفكار التي سبقتها حتى يتم البناء اجمعه، فنراه اذا اراد البرهان على فكرة ما مشتقة من النظام فما عليه الا ارجاع هذه الفكرة الى الافكار التي استخدمت في تعريفها، وارجاع هذه الافكار التي سبقتها، وهكذا. ويسمى هذا النوع من البرهان بالإرجاع او الرد (Réduction).

نستنتج مما سبق ان الهندسة نموذج العلم الكامل منذ ان وضع اقليدس مبادئ هذا العلم في القرن الثالث ق.م والحقيقة ان (الاخلاق) سبينوزا تتبع طريقة اقليدس في كتابه (العناصر) وبعد "سبينوزا " نجد ان "نيوتن" في تأسيسه لعلم الطبيعة قد استند على نفس الاسلوب ليس غريبا ان يتبع المرء المنهج الهندسي في عرض علم الهندسة او علم الفيزياء، ذلك لان هذا المنهج مناسب تماما لهذين الموضوعين، والغريب حقا ان يتبع فيلسوفا هذا المنهج في عرض فلسفته المكونة من ميتافيزيقا وابستمولوجيا والاخلاق.

وذلك لاعتقاده الجازم بان المنهج الهندسي يمكن الوصول الى حقيقة والدقة العلمية والمنهجية التامة، متبنيا وجهة النظر اليونانية القديمة القائلة ان العالم ينظم بصورة هندسية ورياضية، قوامها النظام والانسجام والدقة، وان الانسان جزء من هذا العالم، واذا اراد تنظيم حياته وسلوكه واخلاقه ومعتقداته، فيجب عليه ان يتيح للعقل فرصة كي يضفي نفس النظام

[1] كريم زيد عباس،المصدر السابق ص2008.

والانسجام والدقة الموجودة في الكون، لم يكن سبينوزا يفصل بين عقلانية تسود عالم الطبيعة، وعقلانية اخرى تسود عالم الانسان.

وفي الاخير، لا يمكن ان نميز بينهما الا على اساس تمايز صفاتهما، ولان الجوهر الحقيقي يحتوى على كل الصفات وعلى راسها الفكر والامتداد، فمعنى هذا انه لا يمكن ان يكون هناك جوهر اخر بجانيه يحتوى على صفة مختلفة، ويشبه هذا البرهان الافكار التي قدمها فلاسفة العصور الوسطى المسيحيون والمسلمون حول وحدانية الاله، وهو عدم وجود اله اخر بجانبه، بل استحالة وجود الهين الله هو جوهر كل شيء وعلنه، لا يعمل شيئا لغاية وان ما يوجد لا يوجد الا فيه. و كل ما يوجد انما يوجد با لفاعلية الضرورية لذاته كل ما يوجد اذن لا يمكن ان يوجد انها تعد المرء هكذا لان يربط يكشف نفساني وباطني كل ظاهرة كونية بهذه العلة الاولى التي يتعلق بها كل شيء بالضرورة[1].

اما الصفة الثانية للجوهر فهي ان وجوده ضروري، اذ يرى سبينوزا " اننا لا يمكن ان نتصور جوهرا واحدا يحتوي على كل الصفات ونفس الوقت، يفتقر الى الوجود لأنها صفة لازمة للجوهر، لا يمكن تصوره بدونها[2]، وهي شبيهة بحجة اثبات الله عند القديس "اسلم" وتوما الاكويتي" و"ديكارت" ايضا، فهو يستخلص الوجود من الفكر وذلك يذهب الى ان الفكرة وهي هنا فكرة الجوهر اذا كانت صحيحة، فمعنى هذا ان الجوهر موجود، ذلك لأننا لا يمكن ان نحوز على فكرة صحيحة دقيقة عن شيء، ويكون هذا الشيء غير موجود في نفس الوقت.

والصفة الثالثة للجوهر هي الخلود(Eterrity) اي ان الجوهر لم يظهر من العدم ولا يمكن ان يفنى[3] يترتب عن وجوده الذي ينفصل عنه وجود دائم، اي خالد ولا يجب ان نفهم خلود الجوهر صفة زمانية له، بل صفة وجودية.

---

[1] اندرية كارسيون: المشكلة الاخلاقية والفلاسفة، ص252.

[2] Spinoza، ibid، parti I، p11.

[3] Op cit، p53.

اما الصفة الرابعة للجوهر هي اللانهائي (infinity) وهي ليست لانهائية مكانية بمعنى انها ليست لانهائية في امكان انقسام الجوهر الى عدد لامتناهي من الاجزاء، ولا تعنى كذلك ان الجوهر لامتناهي في الحجم او الضخامة، لانهائية الجوهر عند سبينوزا تعنى ان كل ما يوجد وما يمكن ان يوجد داخل فيه، وليس هناك شيء اخر خارجه الشيء.

اذا تناولنا مفهوم الامتداد في ذاته وجدنا ان خاصيته الاساسية تتمثل في ابعاد الهندسية والحيز الذي شغله من المكان ايضا هو عبارة عن حيز هندسي يمكن ان تقاس وتحكمه القوانين الرياضية، لكن العلاقات الرياضية الهندسية التي تميز الامتداد هي ذاتها، نوع من الفكر، هذا بالإضافة الى ان القوانين الفيزيائية والكيميائية التي تحكم تفاعلات الجسم وحركات الاجسام هي ايضا نوع من الفك، بالتالي فان الماهية الحقيقية للامتداد في فكر، ومن جهة اخرى فان الفكر كذلك يحتوى على الامتداد حتى على مستوى الافكار المجردة، وفي المنطق يميز بين المفهوم والمصادق، المفهوم هو معنى الكلمة الذي تتوصل اليه بالتعريف، اما الماصدق فهو الاشياء التي ينطبق عليها هذا المفهوم، فلكل مقولة فكرية امتدادها من الماصدقات، وبالتالي فالامتداد صفة للفكر نفسه، وهكذا نظر سبينوزا الى الفكر والامتداد على انهما شئي واحد، فالفكر له امتداده من الماصدقات، والامتداد نفسه ليس الا البعد الهندسي الرياضي الذي ليس سوى فكر.

اما تعريف سبينوزا للحال، فهو كالتالي: "اعني بالحال ما يطرأ على الجوهر، او ما يوجد في شيء غير ذاته، ويتصور شيء غير ذاته[1] ويقصد من هذا التعريف ان الحال هو التعيينات الجزئية للجوهر، فاذا نظرنا الى لإنسان مثلا على انه جوهر، فان الاشكال المختلفة للأجسام البشرية سوف تكون احوالا، اي تنويعات على الجوهر الانساني، او الامثلة الجزئية لجنس الانسان.

[1] Spinoza, ethics،part I, p45.

واذا نظرنا الى الشكل الكروي على انه الجوهر سوف تكون الدائرة هي صفته او ماهيته، وتكون احواله او تنويعاته هي كل الاشكال الكروية الموجودة مثل" الشمس، والقمر، وكرة القدم والتنس " الحال اذن هي المثال الجزئي للجوهر "[1]

ومن طبيعة هذا المثال الجزئي ان لا يوجد في ذاته، بل في شيء اخر ذلك لان الشمس كروية، والقمر كروي، ووكرة القدم كروية وهي لا توجد بذاتها بل توجد باعتبارها ملحقة بالشكل الكروي فلن يكون هذا المثال حالا او تنويعا على الشكل الكروي بل سيكون صفة هذا، ويلحق سبينوزا بالجوهر عددا من الصفات، وهي في الحقيقة اربعة صفات: الجوهر واحد بمعنى انه لا يمكن وجود جوهرين اثنين، كما ان وجوده ضروري وخالد، ولا متناهي، اي انه ليس هناك الا جوهر واحد ولا يمكن ان يكون هناك جوهرين[2].

ذلك لأنه اذا كان هناك وجود لجوهرين، بمعنى هذا ان كل منهما سوف يحتوى على صفة مختلفة.

[1] Op-cit, p45.

[2] Op-cit, p47.

الفصل الثالث

فلسفة الاخلاق السبينوزية بين النقد و التقييم

أولا الجوانب السلبية والايجابية للنظرية الاخلاقية

1- الجانب السلبي.

2- الجانب الايجابي.

ثانيا الانتقادات الموجهة لفلسفة سبينوزا الاخلاقية

أولا: الجوانب السلبية والايجابية للنظرية الاخلاقية

من الطبيعي ان تثار مشكلة السلبية والايجابية في صدد كل مذهب اخلاقي يدعو الى قهر الانفعالات عن طريق العقل: فمنذ الرواقيين اصبح الاعتراض على مثل هذه المذاهب بالسلبية امرا مألوفا .أليست تدعو الانسان الى ان يركز طاقته في كبت انفعالاته وقهرها، ويستخدم عقله في السيطرة ذاته، بدلا من ان يستغل هذه الطاقة في التغلب على العوامل الخارجية المؤدية الى هذه الانفعالات، او يستخدم عقله في السيطرة على العالم المحيط به ؟ان مثل هذه المذاهب، ابتداء من الرواقية حتى سبينوزا تبدو صالحة لأناس يعزون عن تغيير العالم المحيط بهم فيركزون جهودهم في تغيير انفسهم، ويجعلون مسرح نشاطهم هو عالمهم الباطن، لانهم لا يملكون ان يسيطروا على اي عالم سواه .

1. الجانب السلبي:

و في نظرية سبينوزا في قهر الانفعالات كثير من العناصر التي تشجع على مثل هذا النقد وهو يتحدث احيانا بلهجة توحي مباشرة بالسلبية كما في قوله في الرسالة رقم20 التي يتحدث فيها الى اولدنبرج عن الحرب الدائرة بين هولندا وانجلترا، وهي الحرب التي لا يوافق عليها وعلى ما يراق فيها من الدماء: "اما انا فلا نثير في هذه القلاقل ضحكا.

ولا بكاء: وانما تدفعني الى التفلسف وامعان النظر في طبيعة البشر، اذ لست اعتقد ان من حقي ان اسخر من الطبيعة آو ان اشكو منها، وذلك كلما فكرت في ان الناس، شانهم شان سائر الموجودات ليسوا الا جزءا من الطبيعة، وفي انسى اجهل كيف تتفق هذه الاجزاء مع الكل وتتمشى معه، وكيف يرتبط كل جزء بالباقيين .....فانا الان اترك لكل الحرية في ان يحيا وفقا لطبيعته" هذه دون شك نظرية سلبية الى ظاهرة يعترف، هو ذاته بانها شر، وهي الحرب، ولكنه يعزوها الى ضعف كامن في الناس لا يمكن احداث تغيير فيه[1] . والنظرة

[1] _ فؤاد زكريا:اسبينوزا ،المرجع السابق، ص ص 224،225

[1]السلبية ترتبط بتأمل الامور في طبيعتها الضرورية، اي من منظور الازل[2]. فلا بد له، لكي يترفع عن صغائر الناس ومظاهر ضعفهم، من ان يربط كل حادث بالمجرى الضروري الازلي للطبيعة . وهذا امر مستساغ في لخطة التحليل والتفلسف، ولكنه اذا اصبح يعبر عن الموقف الوحيد للفيلسوف، فانه يؤدي الى انكاره لوجوده الانساني، وكفه عن المشاركة العملية في الشؤون اليومية لبقية الناس . ومن الواضح ان حياتنا العملية تقتضي نوعا من التخلي المتعمد مؤقتا عن وجهة النظر الاولية والاهتمام من ان لآخر بجزئية الحوادث، وبعالم الانفعالات بما فيه من قيم بشرية هي حقا لا تنتمي الى طبيعة الاشياء، ولكنها قطعا تعبر عن مشكلات اصلية في حياة الانسان.

2. الجانب الايجابي:

ومن وجهة نظر اخرى، التعقل وفهم الاسباب خطوة ايجابية نحو التخلص من مشاكلنا، ولكنه ليس هو الخطوة الاخيرة، فالفهم والمعرفة ليسا كافيين، بل ان في الاقتصار عليهما نوعا من السلبية ومن الواجب ان تكملهما محاولة للتغيير الايجابي للظروف الخارجية، هذه المحاولة تنتمي الى ميدان "الفعل " اي الى ميدان العقل وحده ونستطيع ان نقول، رغم ذلك كله: ان تهمة السلبية لا تنطبق على فلسفة سبينوزا الأخلاقية كل الانطباق، ففي هذه الفلسفة عناصر ايجابية لا تذكر، فهو يفترق عن كثير من المذاهب الداعية الى قعر الانفعالات بالعقل في ان هذه الدعوة لم تكن قائمة عنده على اساس من الزهد بل انه يؤكد على نحو لا يتضمن اي ليس ان من واجب الانسان ان يمارس كل عناصر طبيعته بقدر ما يستطيع، ولنلاحظ في هذا الصدد ان مبداه الاساسي الذي فسر من خلاله كل مظاهر سلوك الانسان، وهو مبدا الاستمرار في الوجود هو في ذاته مبدا للفاعلية، بينما هو يعد كل ما يعوق فعل النسان شرا، وفضلا عن ذلك فقد اكد سبينوزا اهمية سعى الانسان الى نفعه الخاص، ولم

[2] مرجع نفسه، ص ص225،226.

يذكر اي عنصر من عناصر الحياة الحسية او يحمل عليه الا اذا اصبحت له الغلبة على العقل، وهو امر لا تنكره اية فلسفة مبنية على مبدا الفاعلية المطلقة للإنسان.

واخيرا فقد اكد القيم الاجتماعية، كما راينا من قبل، على نحو لا يقبل اي جدال، وربط بصورة واضحة بين انهاض الانسان لحياته وبين اتصاله الاجتماعي بالأخرين، وفي ذلك قطعا عنصر الايجابي واضح.

على ان هذا العنصر الايجابي الذي يتمثل في تأكيد القيم الاجتماعية، يظل مع ذلك كما لاحظ دودان معتمدا على (البادرة الشخصية) ففي مذهبه الذي تكون فيه الطبيعة سائدة في مجراها الحتمي غير عابئة بالإنسان او مكترثة بأهدافه، لا يكون للأخلاق باسرها اي معنى الا من حيث تهيب بالبدرة الشخصية، التي يتضامن الناس على اساسها في المجتمع، وبعبارة اخرى: فالتضامن الاجتماعي في هذه الحالة يتخذ قوته الدافعة من الفرد ذاته، ولابد ان يبنى على نظام ذاتي فردي في اخر امر ومثل هذا النظام الذاتي المستمد من وصول العقل البشري الى ارفع مستوى يمكنه ان يبلغه، لا يتوافر الا للقليلين وهكذا يضطر المرء الى الاعتراف بان الاخلاق عند سبينوزا تتجه الى القلة لا الى الكثرة، وانه رغم اعترافه الكامل بطبيعة الانسان بفرض للأخلاقية شروط لا يصل اليها الا القليلون. [1]

وقد كانت هذه المشكلة موضوعا للسؤال الذي ختم به "سيلقان زاك" كتابه عن " الاخلاق عند سبينوزا "، واعني به: هل كان مذهب سبينوزا الاخلاقي ديمقراطيا ام ارستقراطيا؟

فهناك قطعا نزعة ديمقراطية تتمثل في حملته على السلطة الدنية، ايا كان مظهرها، وفي تأكيده ان قلب الانسان وحده، لا اية سلطة خارجية، كفيل بان يرشده الى الطريق القويم، ولكن كانت هناك ايضا نزعة ارستقراطية واحة، تظهر في تأكيده ان وسيلة الخلاص هي المعرفة العقلية التي لا تتوافر الا للقليلين وهكذا لا يكاد المرء يجد مفرا من القول ان مذهب

[1] _ المرجع نفسه ص 226

سبينوزا الاخلاقي يتضمن نوعا من التمييز بين اخلاق للسادة واخلاق للعبيد .و لو تأملنا الاوصاف التي تحدث بها سبينوزا عن اخلاق المذاهب اللاهوتية بما فيها من مكافاة وثواب وعقاب ووعد ووعيدا وبما فيها من استغلال واضح لمشاعر الناس تملق لانفعالاتهم، لوجدنا هذه الاوصاف تعبر، عنده عن فكرة " اخلاق العبيد " بكل وضوح .و في الوقت الذي نراه يدعو فيه عامة الناس الى الاخذ بهذه الاخلاق، لأنها هي التي تصلح لهم وتكفل ارشادهم الى الطريق السليم نراه لا يكف عن ان يؤكد انه وجد "الخلاص" بطريق اخر، ويضع لنفسه نوعا من "الامر المطلق" الذي لا يمارس فيه الخير من اجل ما قد يجلبه من النتائج، بل لان مكافاة الفضيلة هي الفضيلة ذاتها " . وهو يعترف بعجز العامة عن التفكير الكفيل بربط الانفعالات بالمجرى الضروري لطبيعية، فلتكن للعامة اذن اخلاقها الخاصة، التي لا يتخلص فيها الانسان من الانفعال الا بانفعال اخر اقوى منه، اما الخاصة، او "السادة" فوسيلتها الأفضلية هي المعرفة، وسعادتها في ممارسة العقل، وخلاصها في الاعتراف بالضرورة، وتلك بالطبع مرتبط لا يصل اليها الا القليلون، اذ ان ارفع الاشياء كما قال في العبارة التي ختم بها كتاب "الاخلاق" مثلما انها اندرها وهكذا مضت بنا هذه المناقشة ذات الطابع الديالكتيك الواضح لمشكلة السلبية والايجابية عند سبينوزا، وبالتالي لمشكلة الارستقراطية والديمقراطية في هذه الاخلاق، من تأكيد الى تأكيد مضاد على مستوى ارفع، وفي اعتقادنا ان الراي السابق ليس هو رغم المظاهر البادية الكلمة الاخيرة في هذا الموضوع، كمزال من الممكن القول ان المثل الاعلى الذي وضعه سبينوزا للأخلاق، وهو سيادة العقل، ليس ارستقراطيا من جميع الاوجه، وبالتالي ليس غاية سلبية بالنسبة الى الجزء الاكبر من البشر، ذلك لان للعقل الرفيع هذه الميزة، وهي انه اذا كان من الوجهة العملية النظرية يمكن ان يتوافر للجميع، بل ان المعرفة هي نظريا، اقرب المثل العليا الى متناول الجميع، فهي كما قلنا، ليس كالمال ينقص كلما ازداد عدد المشاركة فيه، وانما هي الغاية الوحيدة التي يمكن[1]

[1] _ المرجع نفسه ص ص 228،229

ان يشارك فيها الجميع على السواء، او تزداد افاقها اتساعا كلما اتسع نطاق المشاركة فيها[1]، وصحيح ان هذا من الوجهة العملية امر غير متحقق لان المعرفة بالفعل لا تتوافر الا للقلة النادرة، ولكن المثل لأعلى للمعرفة هو، من حيث المبدأ، اسهل المثل العليا مثالا، مثلما انه من الوجهة العملية اصعبها بلوغا، وعلى اساس هذه الطبيعة الخاصة لمثال المعرفة يمكننا ان نحل المشكلة بالجمع بين طرفيها في هذا المركب الاعلى[2].

ثانيا: الانتقادات الموجهة لفلسفة سبينوزا الاخلاقية.

اختلفت الآراء في تقويم فلسفة سبينوزا فقد اعتبره البعض مثلا للملحدين أي عدم اعترافه بالحرية والاختيار وايضا كما الغي الحرية الانسانية متمثلة في ارادة الانسان المكبلة[3]، وايضا تقييم مفهوم الاخلاق عند سبينوزا تندرج في اشكال ثلاثة فقط، اي ان هناك ثلاث صور في المثل العليا والحياة الاخلاقية، أولها ما دعى اليها بوذا والمسيح من فضل الرحمة واللين والمحبة والتي تدعو الى المساواة بين الناس، وتدفع الشر بالخير و تعبير الحب هو الفضيلة، وثانيها ما دعى اليه ماكيافيالي ونيتشه من فضائل العنف والرجولة التي تدعو الى عدم المساواة بين الناس تعتبر القوة هي الفضيلة. وثالثهما اخلاق سقراط وافلاطون وارسطو التي تنكر امكانية تطبيق النوعين الاولين.

تعتمد على العقل والفضيلة عندهم، هي العقل ومن هنا الصور الثلاث للأخلاق المثالية كما يراها كل من المسيح وبوذي والفلاسفة، فالفضيلة في الاولى هي الحب والفضيلة في الثانية هي القوة والفضيلة الثالثة هي العقل، ويجيء سبينوزا ويوفق بحركة لا شعورية منه بين هذه الصور الفلسفية المتناثرة والمتضاربة ويحبكها في وحدة منسجمة ويقدم لنا نظاما أخلاقيا[4].

1

[2] فؤاد زكريا: أسبينوزا، المرجع نفسه، ص226-228.

[3] ابراهيم مصطفى ابراهيم: الفلسفة الحديثة من ديكارت الى هيوم، دار الوفاء، الاسكندرية، ، 2000، ص211.

[4] ول ديورانت: قصة الفلسفة، تر: فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت ،ط6، 1988، ص225.

ومن الانتقادات الموجهة لاسبينوزا ايضا في مجال الانسان، وجدناه لا يسلم من عدة نقائص نظن ان سبينوزا قد وقع فيها، منها مثلا في اقراره بان الجسم الانساني هو عينة جزئية من امتداد شامل، وكأنه بهذا يعدم الوجود البشري، ثم يقر بوجود الانسان وتحققه العياني، وايضا قوله بان النفس هي الفكر ثم يقر بانفعالاتها وتعقلها بالوجود واخضاع للعقل وكل هذا يكون تناقضا محضا.

وفي الاخير يقول هيجل عن اسبينوزا انه نقطة تحول حاسم في الفلسفة الحديثة والخيار الحقيقي في الفلسفة يعود الفضل اليه، والا فلا تكون فيلسوفا الا اذا قرأت اسبينوزا ولا تشكل لنفسك مذهبا الا اذا اعتنقت مذهبه ابتداء[1].

[1] المرجع نفسه، ص ص189-190.

الخاتمة

خاتمة:

مما لاشك فيه ان الانسان يقوم سلوكات واعمال مختلفة بعضها يشمل الاليات البيولوجية كأليات الجهاز العصبي والدموي والتنفسي وتدخل هنا كذلك الاليات الناتجة عن العادة وبعضها الاخر يشمل التصرفات المبنية على لاختيار والحرية والتضحية والامانة والصدق والكذب وغيره فالمجموعة الاولى من الافعال لاإرادية، وهي تخرج من دائرة الاخلاق لأننا لا نستطيع ان نستحسنها او نستنكرها، اما المجموعة الثانية فهي تختلف اختلاف كبيرا عن الاولى لأنها تمتاز بالإرادة والوعي ولهذا كانت موضوعا للأخلاق الا اننا نلاحظ مما سبق ان المذاهب الفلسفية اختلفت حول الاساس الذي ينبني عليه سلوكنا الاخلاقي، لكن بالرغم من الاختلاف الظاهر حول الاسس التي يقوم عليها الفعل الخلقي الا انها تبقي في حقيقة الامر اسسا متكاملة ومتداخلة في فهم السلوك الاخلاقي والحكم عليه، وترتبط من بعض النواحي بالعقيدة الدنية، وبما ان العقيدة الدينية، ذاتها تقوم على نوع من الفهم يتم بواسطة العقل، فان العقل ضروري للتجربة الاخلاقية فهم يصوبها ويربطها دائما بمنطق الواقع، تم ان هذه التجربة وان تعلقت قيمها بضمير الفرد نفسه وجب ان تناقش وان تستمد احكامها التنظيمية وقواعد ها من الجماعة، دون ان نتعارض مع الطبيعة البشرية.

النتائج التي توصلنا اليها من هذا المحتوى ان المشروع الاخلاقي السبينوزي القائم على الاسس العملية، والذي تناولناه في الفصول السابقة، انما اراد الخروج بالإنسان من الفوضى الفكرية والسلوكية التي يعيش فيها، اذ استطاع التخلي عن الاتجاه الفكري القديم، اتجاه العالم والتأثير فيه، وبهذا كانت فلسفته الاخلاقية بمثابة ثورة على التفكير الاخلاقي القديم، انطلاقا من انقسام فلسفة الى بعدين: شمولي، وتضمني اذ يميل سبينوزا الى الراي القائل ان الايمان طريق ضروري لقيادة العامة، ذلك لان الكتاب المقدس يعتمد في نصوصه على الخيال التصوري، والمجاز، وضرب الامثلة، ولغته خطابية حماسية والجمهور لا يستطيع الوصول الى المبادئ الاخلاقية عن الطريق النظر العقلي في التفلسف والبرهان مثلما يفعل الفلاسفة

اما من ناحية البعد الضمني وبصورة عامة، قد تفطن سبينوزا الى حقيقة ان كل عصر يطبع ناس بأخلاق معينة تخالف اخلاق العصور الاخرى، لكن هنا يرى ان الاجابة عن سؤال: هل يعني هذا ان الانسان تتغير اخلاقه بتغير الزمان والمكان؟.

بالإيجاب والنفي لان المجتمع هو بيئة انسانية خاضع للتطور، لهذا فان التطور يطال الانسان ايضا هذا من جهة الايجاب، اما النفي فان الانسان طبيعة انسانية وللعالم والمجتمع قوانين يخضعان لها وهي عامة على الرغم من تخصصاتها التطورية المختلفة ومن هنا كانت الاجابات (النفي والايجاب) تقضيان الى القول بالحتمية، بوصفها رؤية اخلاقية مقابل الرؤية القديمة، وهذا يعني ان ما يتطور من الاخلاق هو القضايا والمفاهيم التي ينتجها العصر والبيئة، ولكن ضمن اطار ثابت تمليه الانسانية وقوانين العالم.

لقد كان للتطور العملي الذي حدث في عصر النهضة الأوروبية دور هام في قلب النظرة التي توجه المفاهيم الاخلاقية والقضايا، وان تستمد وسائلها من العلم، لذلك اعتمد سبينوزا المنهج العلمي الرياضي الهندسي، عكس النظرة الاخلاقية القديمة ذات دلالات كلاسيكية.

لقد وضع التطور العلمي الفكر الاخلاقي امام انظمة من الافكار والمفاهيم لم يسبق له ان عرفها، مما فرض مسائل اخلاقية كان لابد من مواجهتها، وايجاد الحلول المناسبة بها، لكنه لا يستطيع ان يجد لها حلا ما لم يضعها في اطارها الانساني العام، اي ما لم ينظر اليها من خلال موقف الانسان في العالم، وقد اخذ سبينوزا عاتقه القيام بهذه المهمة في الفكر الغربي الحديث، فرأي بان الموقف الخلافي مرتبط بفهم العالم، فمن دون ادراك الحقيقة الجزئية في علاقتها بالكلية لا يمكن للمرء ان يقوم سلوكه الاخلاقي، ولكن هناك مستويات في الفهم ومستويات في التنفيذ ومعرفة الحقيقة ومراعاتها في السلوك يمكن ان تأخذ اشكالا مختلفة من فرد على فرد ومن عمل اخلاقي الى عمل اخلاقي اخر.

اذن فلسفة سبينوزا تشير الى علاقة الفرد بالعالم، فالفرد ايضا يحاول بكل مجهوداته تجاوز طبيعة الفردية الى القيم الاجتماعية والانسانية (هناك طبيعة الفرد الفردية، وطبيعته البشرية) وهنا تفاعل بينهما .

اذن تحتل مفاهيم (الجوهر، الصفة، والحال) موقعا مركزيا في فلسفة سبينوزا، فكلمة جوهر يستخدمها لتوضيح ما الذي يغنه ب (الاله، الطبيعة او محاول لذاته) وهي موضوعة تقدمت فلسفة سبينوزا الأخلاقية، كما حاول الرتقاء بلغة الحياة اليومية، باعتبارها الوعاء الذي تصدر منه الانفعالات النفسية ومن دون شك فقد نجح في جعل فكرة الاله ضمن الحكم الشامل للطبيعة من خلال صفتي (الامتداد، والفكر) وهي صفتي الاله الذي لا يعرف صفاته سوى هاتين، كما ينكر لامادية الاله ويذكر ايضا الانفصال الروح عن الجسد في الانسان، وعندما يجعل الجوهر امتداد وفكرا يعتبر ان الصفتين غير المنفصلتين، فانه يفترض بموجب تعريفه للإله (على انه تكوين كلي منطقي يحتوى كل شيء ضمن ادراكه، فضلا على انه لا يتطلب علة لوجوده).ان الانسان هو حال تابع للإله، فجسمه مجرد حال لصفة الامتداد ونفسه مجرد حال لصفة الفكر، وبالتالي فالنفس والجسد شيء واحد .ومن هنا كانت نظريته في الانفعالات التي يرى انها جسمية في الاصل تأتي من الميل الطبيعيين للحفاظ على الكينونة، ولهذا لا ينبغي ان تخرج عن اطار القانون والتفسير العلمي.

و بالتالي، امكن لنا القول ان فلسفة سبينوزا الاخلاقية تتلخص في القول ان العمليات المنتظمة للطبيعة كلها، وافعال الانسان يوجهها قانون الضرورة الازلي، ولان هذا القانون هو شامل وينطبق على كل شيء ضمن نطاق الكون، فان الضرورة الازلية لطبيعة الكون تنشيط للحفاظ على وجودها، او ليس للإرادة لا يمكن ان تتحدد بأفكار اخرى، وهي وسيلة لإدراك الحتمية الاخلاقية لكن بصورة من قضة للقدرية وفي الختام، فان فلسفة سبينوزا استندت على مبادئ عملية شاملة، تؤسس لبلوغ الخلاص الانساني من خلال الملكات الفكرية .لذا فالإنسان يرغب بتظليم حياته اذا احترم القانون الالهي للطبيعة.

وبادراك فلسفة سبينوزا يمكن ان نحصل المتعة، بحيث يمكن ان نجد في بعض جوانب تلك الفلسفة من المبادئ ما يساعدنا على تحويل حياتنا الى جنة على الارض.

والسؤال الذي يترتب علينا اثارته اذا كانت الاخلاق السبينوزية ناهت بين الطبيعة والاله فهل تموسب المشروع الاخلاقي سبينوزي للموضوعية كفيل بتأسيس فلسفة اخلاقية تطبيقية تقدم علاقة نسقية بين العقل والدين يتجهان بقصد والغاية نحو الذات التي تستمد شرعياتها اثناء ممارسة الفعل الاخلاقي من الحرية لو المسؤولية؟.

قائمة المصادر

والمراجع

1) اندريه لالاند: الموسوعة الفلسفية، منشورات عويدات، بيروت، باريس، المجلد 1، ط/1، 1981

2) حسين حمزة شهيد: الأخلاق في فكر أفلاطون الفلسفي، جامعة الكوفة، كلية الآداب، قسم الفلسفة، العدد العاشر، 2008.

3) غري غوان فرانسوا: المذاهب الأخلاقية الكبرى، ترجمة قوتيه ألمعروفي، منشورات عويدات، باريس، ط/3، 1984.

4) محمد بدوي، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، جامعة الإسكندرية، 2000 .

5) عثمان أمين: رواد المثالية في الفلسفة الغربية، دار المعارف، فرع الإسكندرية، القاهرة 1967.

6) إيمانويل كانط: مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة، ترجمة: نازلي اسماعيل حسين ومحمد فتحي الشنيطي، موفم للنشر، 1991.

7) جيني فان، روديس لويس: ديكارت والعقلانية، ترجمة عبده الحلو، منشورات عويدات، بيروت، ط/2، 1977 .

8) عطية، أحمد عبد الحليم: الأخلاق في الفكر الغربي المعاصر، دراسة تحليلية للاتجاهات الأخلاقية الحالية في الوطن العربي، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة مصر .

9) عدنان عويد: الفلسفة الوجودية، بوابة الهدف الاخبارية، 27أكتوبر 2018

10) سارتر جون بول: الوجودية مذهب انساني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت

11) مرحبا عبد الرحمان : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، منشورات عويدات، بيروت، ط/1، 1993.

12) فاخوري حنا، ولجر خليل :تاريخ الفلسفة العربية، دار الجيل، بيروت، ج1، ط/2، 1981، ص85

13) ياسبيرس كارل: فلاسفة إنسانيون، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط /3، 1988

14) مرحبا عبد الرحمان: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، المرجع السابق، ص57

15) أندريه كاريسون:المشكلة الأخلاقية و الفلاسفة، ترجمة عبد الحميد محمود، تع:أبو بكر ذكرى، مهرجان القراءة للجميع.

16) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، ط/1، د/س، ص 81

17) قامير يوحنا: أصول الفلسفة العربية، منشورا المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط/2، 1967 .

18) هاملتون حبيب: علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات، باريس، 1977 .

19) كاريسون اندريه :تيارات الفكر الفلسفي في العصور الوسطى، منشورات عويدات، بيروت، 1962 .

20) زيغود علي: أوغستينوس، دار أقرا، ط/ 1، د / س .

21) الجندي أنور: مفاهيم العلوم الإجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام، دار الكتب، الجزائر، د/ س .

22) عباس عبد المنعم: ديكارت والفلسفة العقلية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د/س .

23) أحمد أمين: الأخلاق، دار الكتاب االعربي، بيروت، ط/3، 1965، .

24) حلمي مصطفى: الأخلاق بين الفلسفة وعلماء الدين، دار الكتب العالمية، ط /1، 2004 .

25) عبد الرحمن بدوي، الاخلاق النظرية، وكالة المطبوعات، الكويت، 1975.

26) عبد العزيز احمدن مباحث في نظريات الاخلاقية، دار الفكر العربي عابدين، 1965.

27) زكي مباركن الاخلاق عند الغزالين مطبعة الرحمانية، القاهرة، 1977.

28) فؤاد زكريا: "اسبينوزا"، مؤسسة هنداوي سي آي سي ، المملكة المتحدة، 2017 .

29) باروخ سبينوزا: "علم الأخلاق"، ترجمة: جلال الدين سعيد، مراجعة د.جورج كتورا، المنظمة العربية للترجمة بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، بناية بيت النهضة، شارع البصرة لبنان، الطبعة الأولى، 2009 .

30) علي محمد يوسف: سبينوزا .. الله والطبيعة والإنسان ، صحيفة المثقف ، أقلام فكرية ، العدد 5109 .

31) فؤاد زكريا: "اسبينوزا "، مؤسسة الهنداوي سي آي سي ، المملكة المتحدة، 2017

32) يوحنة بيداويد: الله في فكر الفيلسوف الهولندي باروك سبينوزا، الحوار المتمدن، 20 . 09 . 2010

33) زكريا فؤاد: اسبينوزا ، دار التنوير، بيروت، ط/3، 1983 .

34) أمة السلام محمد علي جحاف : باروخ سبينوزا"فلسفة وتربية"، مراجعة: محمد الكمالي ومحمد الخياط، جامعة الملكة أروى ، الجمهورية اليمنية ، 2008.

35) محسن المحمدي: سبينوزا ومواجهة الانفعال السلبي، جريدة العرب الدولية، الشرق الأوسط، اغسطس 2016

36) فؤاد زكريا: اسبينوزا، مؤسسة هنداوي سي آي سيوالمملكة المتحدة، 2017.

37) أمة السلام محمد علي جحاف: المرجع السابق.

38) فان جا، طريق لفيلسوف، تر: أحمد حمدي محمود القاهرة، 1967.

39) Spinoza، ethics، ethics، an introduction ، New york ، cambridge، uni pressm 2006

40) سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، تر: حسن حنفي، مكتبة أنجلومصرية القاهرة، دط، 1981

41) سبينوزا، اصالح الفهم البشري.

42) كريم زيد عباس، اسبينوزا (الفلسفة الاخلاقية)، مكتبة فلسفية، ط1.

43) اندرية كارسيون، المشكلة الاخلاقية والفلاسفة.

44) ابراهيم مصطفى ابراهيم: الفلسفة الحديثة من ديكارت الى هيوم، دار الوفاء، الاسكندرية، 2000.

45) ول ديورانت، قصة الفلسفة، تر: فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت ط6، 1988.

العنوان	الصفحة
مقدمة	6-2
الفصل الاول: علم الأخلاق وتطوره بين النظري والتطبيقي	**23-8**
أولا: التطور الفلسفي لعلم الاخلاق	9
1: السياق الفلسفي لعلم الأخلاق	9
2: تاريخ علم الأخلاق	12
أ . العصور القديمة	12
ب . العصور الوسطى	15
ج . العصر الحديث	17
د . الحقبة المعاصرة	19
ثانيا: الاخلاق بين النظري والتطبيقي	20
1-الاخلاق النظري	20
2- الاخلاق العملية	21
الفصل الثاني: النظرية الأخلاقية والبناء الهندسي للأخلاق عند سبينوزا	**43-25**
أولا: الأساسي للنظرية الأخلاقية عند سبينوزا	26
1 . الطبيعة والقيم الأخلاقية	28
2 . نقد فكرة حرية الإرادة	30
3 . الانفعالات ووسيلة التغلب عليها	32
ثانيا: البناء الهندسي للأخلاق السبينوزية	34
1. في المفهوم	34
2. في البديهيات	39
3. في البرهان	40
الفصل الثالث: لسفة الاخلاق السبينوزية بين النقد والتقييم	**50-45**

أولا: الجوانب السلبية والايجابية للنظرية الاخلاقية	45
1. الجانب السلبي	45
2. الجانب الايجابي	46
ثانيا: الانتقادات الموجهة لفلسفة سبينوزا الاخلاقية.	49
الخاتمة	55-52
قائمة المصادر والمراجع	61-57
فهرس الموضوعات	64-63